

فهرس كتاب
الاسلام والنصرانية
مع
العالم والمدنية

تأليف
الأستاذ الأمام
الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه

فهرس كتاب
الاسلام والنصرانية
مع
العالم والمدنية

تأليف
الأستاذ الإمام
شيخ محمد عبده

قدس الله روحه

فهرس كتاب الإسلام والنصرانية

صفحة

٢ مقدمة ناشر الكتاب

القسم الأول في النصرانية

٩ اصطفااء العلم والمدنية في النصرانية

تقرير شبهة الجامعة على الإسلام

١٢ الجواب الإجمالي عن شبهة الجامعة

١٥ الجواب التفصيلي عن شبهة الجامعة

١٦ نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

١٩ تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

٢١ طائفة من العلماء والحكماء الذين حظوا عند الخلفاء

المقصد من القسم الأول

٢٨ طبيعة الدين المسيحي وأصوله

٢٩ الأصل الأول للنصرانية

٣١ « الثاني » سلطنة الرؤساء

٣٢ « الثالث » ترك الدنيا

٣٤ « الرابع » الإيمان بغير العقول

٣٥ « الخامس » أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج

إليه البشر في المعاش والمعاد

الأصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم	٣٧
نتائج هذه الأصول وآثارها	٣٨
مبحث إخراج كتب البطالة والمصريين بالاسكتلندية	٤١
قتل هيبتى الرياضية المصرية	٤١
مقاومة النصرانية للعلم	٤٣
مراقبة المضوعات ومحكمة التفتيش	٤٦
اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة	٥٠
مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد	٥٣
مقاومتها تسهيل الولادة والسلطة وحرية الاعتقاد	٥٤
مقاومتها الجمعيات العلمية والكتب	٥٥
البروتستانت أو الإصلاح	٥٦
الفصل بين السلطتين فى المسيحية	٥٩
اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية	٦٢

القسم الثانى

طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله	٦٥
تمهيد للأصل الأول فى بيان دعوى الإسلام	
الأصل الأول للإسلام الندر العقلى لتحصيل الإيمان	٧٢

الأصل ٢ الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض	٧٣
الأصل ٣ للاسلام البعد عن التكفير	٧٥
الأصل ٤ للاسلام الاعتبار بسنن الله في الخلق	٧٦
الأصل ٥ للاسلام قلب السلطنة الدينية	٧٩
السلطان في الاسلام	٨٢
الأصل ٦ للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة	٨٨
مقابلة الإسلام الحربى والمسيحية السلمية	٩٠
الأصل ٧ للاسلام مودة المخالفين فى العقيدة	٩٥
الأصل ٨ للاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة	٩٩
(وفيه بحث الصحة والرخص واباحة الزينة والطيبات والاقتصاد)	
النهي عن الغلو فى الدين	١٠٢
نتيجة عامة ذاتية	١٠٣
نتائج هذه الأصول وآثارها فى المسلمين	١٠٩
اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية فى الصدر الأول	١١١
اشتغالهم بالعلوم الكونية فى القرن الثانى	١١٣
انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة	١١٤
انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس	١١٥
علوم العرب واكتشافاتهم	١١٩

١٣٦ أخذ الخلفاء والأمراء بيد العلم والعلماء

١٣٨ إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

القسم الثالث في الإسلام

١٣٩ الإسلام اليوم — أو الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

١٤٢ رأى رينان الفيلسوف الفرنسي في الإسلام

١٤٣ الجواب عن الاحتجاج

١٤٥ جمود المسلمين وأسبابه

١٥١ مفسد هذا الجمود ونتائجه

١٥١ حاية الجمود على اللغة

١٥٤ » » » النظام والاجتماع

١٥٧ » » » الشريعة وأهلها

١٦٢ » » » العقيدة

١٦٧ الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

١٦٨ جمود تلامذة المدارس الأجنبية

١٧٠ » » » الرسمية والأهلية

القسم الرابع

١٧٢ في العلم والدين ومستقبل الإسلام والمسلمين

الجمود علة تزول

صفحة

- ١٨٤ حرية العلم في أوربا الآن . ونسبتها إلى الماضي والحاضر في الاسلام
- ١٨٦ اقتباس مدنية أوربية من الاسلام : وأسباب ظهورها العام
- ١٨٦ السبب الأول للجميات
- ١٨٨ « ٢ الضعف الديني
- ١٩٠ « ٣ الثورة
- ١٩٠ « ٤ ترك المسيحية
- ١٩٢ عودة إلى سماحة الاسلام
- ١٩٥ ملازمة العلم للدين . وعدوى التعصب في المسلمين
- ١٩٨ إهمال آثار السلف . وحال علوم الدين وطلابها
- ٢٠٢ متابعة العلم للاسلام بمبانيته لسواه
- ٢٠٤ الدعاة في الإسلام
- ٢٠٥ المقلد دون المقلد — مقابلة بين المسلمين والمسيحيين
- ٢٠٧ الاصلاح والمصلحون
- ٢١٠ الفرق بين التعصبين المسيحي والاسلامي
- ٢١٢ رأي هانوتو الأخير في معاملة المسلمين
- ٢١٥ سياسة الانكليز في التسامح
- ٢١٨ خاتمة المقال
- ٢٢٠ ترجمة ابن رشد

- ٢٢٢ تمهيد لمقالة الأستاذ الحكيم
- ٢٢٢ المادة وخلق العالم
- ٢٢٣ اتصال الكون بالخالق
- ٢٢٥ طريق الاتصال
- ٢٢٨ الخلود
- ٢٢٩ دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين لأستاذ حكيم
وفيلسوف عظيم
- ٢٣١ فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود
- ٢٣٩ فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة وخلق العالم
المادة وخلق العالم
- ٢٤٠ تصوير مذهب الفلاسفة الالهييين
- ٢٤٥ طريق الاتصال
- ٢٥٢ مانقله فلاسفة أوربا عن ابن رشد وسبب غلطهم فيه
- ٢٥٦ تأثير هذا المقال وتقر يظه

مقدمة ناشر الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِلَاَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ ١٦ : ١٢٥ » .

ظهرت في العالم مدنيات ثم خفيت ، ودُرست فيها العلوم
والفنون ثم دُرست ، وصلحت أحوال الأناسي ثم فسدت ،
وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس
في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والأُم في تلاش وفناء ،
ونشوء وارتقاء ، حتى استعد المجموع في جملته للرقى العام ،
فمنحه الله تعالى دين الاسلام .

جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه أو
الجهات — من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ،

من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله ديناً
قيماً ، وعالماً محكماً ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر
ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة
البرق ، فتغير به وجه الأرض ، وفتتح في الانسان روحاً جديداً
أعطاه من جرائم الحياة ما لا يقبل الفناء ، مادامت الأرض
والسما (١)

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها ، فأحيا
الأرض بعد موتها ، ولكن القائمين على حراسته وتعااهده
وضعوا فوقه أثقاضاً من خرائب جيرانهم ، ففيض الماء ،

(١) بينا أن أركان الإصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم في مقالات
متعدده نشرناها في مجلدات المنار . كمقالات « الإصلاح الديني »
والمقالة التي فاتحتها (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)
ومقالات « سلطة مشيخة الطريق الروحية » وفيها الكلام على تقييد
الاسلام السلطتين : السياسية ، والدينية ، وجعل الناس سواء . وكل
هذا في المجلد الأول ، ومقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » في المجلد
الثاني ومقالة « إعادة مجد الاسلام » ومقالات « مدنية العرب » في
المجلد ٣ الخ ، ومقالات « الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام »
في المجلد الرابع .

وما بقي منه صار مستنقعات تحتوى ، ولم يلبث بعد ما غاض أن
فاض منه شئ في مواضع أخرى ، فانتفع أهلها به وحافظوا
عليه ، ولكن الأكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم ، كما
أن أكثر أهل ينبوع المنتسبين إليه بالاسم لا يعرفون أن
ذلك الماء الذى تفجر فى تلك المواضع . فأنشأ أهلها به حدائق
ذات بهجة ، هو من ماء ينبوعهم . وأنهم لو أزالوا عنه تلك
الأتقاض لفاض ورجع إليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن
ما كان ، إذا هم تعاملوا من غيرهم كيف يستخدم الماء للحياء .
ذلك مثل المسلمين اليوم مع الأمم الغربية الحية الراقية :
أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح الذى هم فيه ،
وهم يقولون إن الاسلام عقبة فى طريق كل إصلاح ، ويقولون
للمسلمين : إن ماءنا صاف نقي يحيى البلاد والعباد ، وماءكم
آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرت والنسل .
فكيف يستوى الماءان ، وقد اختلف الأثران ؟ منهم من
يقول هذا معتقداً ، ومنهم من يقول منتقداً ، ونحن ساكتون
عنهم لأننا جاهلون بأنفسنا وبهم .

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحسه (لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى) فيرجعوا إلى أصول دينهم ، وهو الأولى بهم والأحرى . فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الأحداث لأن يعترفوا بذنوبهم ، وينيبوا بالتدريج إلى ربهم ، إذ ظهر فيهم علماء ربانيون ، وأطباء روحانيون ، يعرفونهم حقيقة الداء ، ويصفون لهم نقي الدواء ، وما طلب الإنسان بلسان استعداده شيئاً من مولاته ، إلا تفضل عليه به وأعطاه إياه^(١)

لهذا سخر الله للمسلمين حكماً من الأعلام ، وإماماً من أئمة الاسلام ، يطب لدائهم ، ويجمع ما تفرق من آرائهم ، وقد كتب في هذه الأيام كتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة إلى الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله : إن المسيحية كانت أكثر تسامحاً مع العلم من

(١) راجع مقالة « الاصلاح والاسعاد » على قدر الاستعداد » في

الاسلام ، وإن الاسلام أكثر اضطهاداً للعلم والفلسفة من
التصراية . وبين في آخر ما كتبه حال المسلمين السوء وعدم
موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم ، فبرأ الاسلام وسلفه من
الملام ، ولكنه لم يبرئ المسلمين المتأخرين ، بل دهم على
حقيقة دائهم ، وهداهم إلى طريقة معالجتهم والخروج منه بإذن الله
تعالى . ولعمري إنه أنذر فأعذر ، وبرئ من وعيد الكتمان
(فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) .

والكاتب المسيحي هو رصيفنا الفاضل صاحب « مجلة
الجامعة » وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي
بالنسبة إلى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . فساعت تلك
الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ، ولمسألتين أخريين
أهمهما عن إنكار الأسباب إلى علماء الكلام ، والثانية ما تضمنته
الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الأكبر
في الأندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت
به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين . ومن المقابلة
بين الديانتين ، ونشرنا ذلك كله في « المنار » .

فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لا يكاد يفيد إلا الخواص من العلماء والمتكلمين . وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص . بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضيء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت أن أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه ^(١) واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأفدت . وعلى الله توكلت .

وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد في الأخذ بأصول دينه المشروحة فيه . وأن يقتدى بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد ، ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة ، وأن سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأن غيرنا ليس كذلك . لأن كل هذا حجة علينا لا لنا ، وهو لا يغني عنا شيئاً في ديننا ولا في آخرتنا (١٩ : ١٧) فبشر عبادي

(١) قد بدا لنا أن نضيف إلى هذه الطبعة ما ردد به الأستاذ رحمه

الله تعالى على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد أيضاً لما بيناه في مقدمتها .

الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله
وأولئك هم أولو الألباب .

محمد رشيد رضا

مذنب، مجلة المنار

(تنبيه) كتبنا هذه المقدمة للطبعة الأولى التي طبعت
في عهد الأستاذ الامام ثم حرصنا نعيدها في كل طبعة ، وقد
اعتدى بعض الكتبية بعد وفاته علينا فطبع الكتاب ، فرفعنا
عليه قضية كان وكيلنا فيها حمودة بك عبده أخو الاستاذ
رحمهما الله تعالى فحكمت المحكمة بأن حق الطبع لنا ، وحكمت
لنا على الطابع المعتدى بالتعويض المالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القسم الأول من الكتاب في النصرانية

اضطهاد العلم والطبعية ، في النصرانية

قال الأستاذ الامام الحكيم رحمه الله وأثابه :
 ذكرت الجامعة - في الجزء الثامن من السنة الثالثة في
 سياق الكلام على ما جرى لابن رشد - أن للناس آراء في :
 هل الدين المسيحي أوسع صدرًا في احتماله مجاورة العلم والفلسفة ،
 أو أن الدين الاسلامي هو الأرحب خلقًا ، والأوسع حِمًا من
 الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون إذا نزلوا بداره ،
 ولاذوا بجواره ؛ وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي
 مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي : أن فولتير وديدرو
 وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر ،
 وابن رشد لم يقل شيئًا سوى أنه قرر ما قال إرسطو وأوضحه
 مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على

وجهه . وللقائلين بسعة حلم الإسلام : أن الإسلام لم يحكم
 بإحراق أحد لجرد الزيغ في عقيدته . وكم حكمت المسيحية بذلك
 ثم جعلت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم وقالت
 « فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح
 مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون
 الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم
 بسبب الاعتقادات الدينية ، فأضعفت أممتهم ، وفرقت كلمتهم ؟
 فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة
 للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب شعب وأمة
 لأمة » اهـ .

ثم قالت الجامعة : أنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها
 فصلت فيهما فصلين (الأول) في قولها « إنا نرى أن السلطة
 المدنية في الإسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع ، لأن
 الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً ، وبناء على ذلك فإن التسامح
 يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية ، فإن
 الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً مهد للعالم

سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي ، وذلك بكلمة واحدة « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالاً للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلاً عن قتلهم ، وسقى الأرض بدمائهم البريئة ، فإنها تجنى جناية هائلة على الانسانية ، وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك ، إذا بدا منها نقص ، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها ، لأنه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام .

والفصل الثاني في قولها : « إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي . ولذلك نما غرسهما في تربة أوروبا وأينع ، وأثمر التمدن الحديث ، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي . وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً » اهـ .

الجواب الإجمالي

وإني أعجل في الجواب بما يلاقى هذين الحكمين إجمالاً :
أما الأول فإن كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة
فالقُرآن قد أطلق القيد من كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة
واحدة . قال في سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد
استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) وقال
في سورة الكهف (وفل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر) .

وأما الثاني : فأسأل الجامعة في جوابه : أين الاضطهاد
الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء
المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم
من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساع لها أن
تقول ما تقول وهي في أرض مصر ، ومصر بلاد إسلامية وحالها
كما ترى ؟ فإذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمر
بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم .

يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس
المسيحيين من جزويت وفريز وأمرىكان وهى مدارس دينية
خصوصاً مدارس الجزويت . فهل يمكننى أن أجد طالباً واحداً
مسيحياً في مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل
طالب عديم من أى ملة ؟ لا نجد إلا قليلاً منهم في مدارس
الحكومة ؛ لعالمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على
الدين . فهل سمع أن والداً اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة
مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من تسامح
الاسلام مع العلم اليوم ؟ (١)

لولا أن موضوع كلامى محدود باعتبار التسامح بالنسبة
إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد
في بلاده طائفتان تعد أحادهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها
نسبة إلى الاسلام ، وهى تعتقد بما لا ينطبق على أصل من
أصوله . حتى أصل التوحيد والتزيه عن الحلول ، ولا تقول

(١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك
النصارى في الجرائد الإسلامية إلا نادراً .

بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة ، لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن ينزوجوا من المسلمات ، وإنما اختفوا في قبول توبة من تاب منهم ، ومن العلماء من قال : لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلام في أوج القوة ، ودخلوا في حكم الأتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم ، وكانت تسافرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسرروا عقيدة تناقض عقيدتهم ، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم ، وهم جيرانهم وتحت أيديهم ، وفي مكننتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . والمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟

غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه ، وأراني نطقت فيه بكلمتي الجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة في قولها : « هل يجب أن يكون التسامح

مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ « ولا لتحقيق
لحق فيما حكمت به في حكمها إلا تفصيل تعرض فيه حالة
لدينين من العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم
عن فهم ، ولا تلبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت في كلامها بأربعة أمور ، آتي بها على
حسب ترتيب النسق في تعبيرها (الأول) أن المسلمين قد
نسأحو أهل النظر منهم ولم يتسأحووا لمثلهم من أرباب
لأديان الأخرى (الثاني) أن من الطوائف الإسلامية طوائف
قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) أن
طبيعة الدين الإسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين
لمسيحي تيسر لأهله التسامح مع العلم (الرابع) أن إنساع ثمر
المدنية الحديثة إنما تتمتع به الأوروبيون ببركة التسامح الديني
لمسيحي . فلا بد من الكلام على كل واحد من هذه الأمور
لأربعة ، وأبتدىء منها بالثاني لقلة الكلام عليه .

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والأشاعرة، مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة، مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة — كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم سمع بحروب تعرف بحروب اخوارج، كما وقع من القرامطة وغيرهم، وهذه الحروب لم يكن مشيرها الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة. وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة، وهي بالسياسة أشبه، بل هي أصل السياسة.

نعم وقعت حروب في الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين، ولكن يتسنى لباحث

بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروباً سياسية ، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين^(١) وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الأمة وفرت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم ، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم . وارتخاء جبل التمسك به في أيديهم ، وأكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهالة على حكومتهم . أقول « الجهالة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمسك من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر

(١) لعل الأولى أن يقال : من أمراء الوهابيين ، وقد وقع بعد وفاة الأستاذ بسنين بين ابن السعود أمير الوهابيين العام وبين الدولة صلح اعترفت له الدولة فيه بالاستقلال التام مع نوع من الارتباط بها .

الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك
 لآخرتهم ، وهذا الدنياهم ، وساروا يراحمون الأوربيين فيزحمونهم
 مالنا وللحكام نعرض لهم ؛ الذي على أن أقول ولا أخشى
 منازعاً : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة
 من العقائد أو على تركها ، على أن هذا الأمر الذي جاءت به
 الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة ،
 لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع
 عقيدة أو دين مع دين ، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف
 المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء
 الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا .

هل أذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك
 الدماء بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القيصرية
 الرومانيين ؟ هل أذكرها بحادثة برتمى سنهليلير التي سفك فيها
 الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم
 على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا ؟ بماذا أذكر الجامعة
 من أمثال هذه الوقائع التي اسود لها لباس الانسانية وتسلبت

لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروى حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مها عظم الاختلاف .

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة ، لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . وإني لا أستدل على رعاية الاسلام على الحكماء من الملل غير المسامة بقول كاتب مسلم ، وإنما أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين ، وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم .

قال المستر درابر ، أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأميركيين : « إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى المناصب في الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع

جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يوحنا بن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : « كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبيل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكائته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الأكبر المأمون : الحكماء هم صفوة الله من خلقه ، ونخبته من عباده ، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نبيل فضائل النفس الناطقة ، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة ، هم ضياء العالم ، وهم واضعو قوانينه ، ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » .

وقال في موضع آخر : « ان العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤيدي أولادهم من النسطوريين ، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » .

ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس ، وبنوا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى

المسكاتب ، لأن هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد .

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حفظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالخطوة عند الخلفاء
جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور، كان
فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة
عجوز لا تشتهي ، فأشفق عليه المنصور وأتقذ إليه بثلاث جوار
حسان فردهن . وقال : إن ديني لا يسمح لي بأز أتزوج غير
زوجتي مادامت حية ، فأعلى مكانته حتى على وزرائه ، ولما
مرض أمر المنصور بحمله إلي دار العامة وخرج إليه ماشياً
يسأل عن حاله ، فاستأذنه الحكيم في رجوعه إلى بلده ليدفن
مع آبائه ، فعرض عليه الأسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت أن
أكون مع آبائي في جنة أو نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه
ووصله بمشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور
بالامساك وكرازة اليد) وأوصى من معه بحمله إذا مات في
الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده ،

فأشار إلى عيسى بن شهلاثا أحد تلاميذه فأخذه المنصور مكان
جورجيس فطفق يؤذى القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه
عند الخليفة لينال رغائبه ، فشعر الخليفة بذلك فطرده .

وممن حظى عند المنصور : نوبخت المنجم وولده أبو سهل
وكانا فارسيين على مذهب الفرس . ثم كانت ذرية مسامة لأبي
سهل ، وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب
فائقة .

وممن حظى بالمكانة العليا عند الخليفة المهدى تيوفيل بن
توما النصراني المنجم ، وكان على مذهب الموارنة من سكان
لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ، ونقل كتاب أميروس
إلى السريانية بأفصح عبارة .

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع
الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني
ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، طبية وغيرها ، وخدم
الرشيد ومن بعده إلى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً
للدروس والمناظرة ، ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في

العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع في بيت
يوحنا بن ماسويه .

وممن علاقده في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى
المأمون، أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من
علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سبور
وسبور ابنه وكانا نصرانيين . وولى سبور بن سهل بیمارستان
جنديسبور .

وكان سامويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ، ولما
مات جزع عليه جزعاً شديداً ، وأصر بأن يدفن بالبخور
والشموع على طريقة النصارى .

وكان مختشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فأجلسه
بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق ، فأخذ المتوكل
يحادثه ويعبث بالفتق ، حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من
الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون
أن الموسوس (المصاب بجبل في عقله) يحتاج إلى الشد ؟ ^(١)

(١) يعنى بالشد هنا ايثاق المجنون بالحبل حتى لا يؤذى الناس .

فقال بختيشوع : إذا عبت بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق
شددناه فضحك المتوكل حتى استلقى .

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي
وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره ، وامتحن
المتوكل صدقه ، فظهرت له عزيمة لا تقل ، فأقطعه إقطاعات
واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في
زمن المأمون وهو فتي ، فكافه بترجمة الكتب ، وكان يعطيه
وزن ما يترجم ذهباً . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني
محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة
بالحرمان من الكنيسة ، فمات غماً لا ضطهاد أهل طائفته له مع
عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضاً كان من
المقربين عند الخلفاء .

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه
أيام خلافة الراضي : متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري
كان متفناً في جميع العلوم العقلية ، أخذ عنه أبو نصر الفارابي
وانتهت إليه الرئاسة في بغداد ، وكان من أهل ديرقني ، ونشأ

في مدرسة مار مارى ، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة . ثم يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقي ، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته . وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي .

ومنهم أبو الفرج ابن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصراني ببغداد ، وكان يقرى صناعة الطب في بیمارستان العضدى ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا . والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته ، وله كلام فيه .

ومن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامّة . تابّت بن قرّة الحرّاني الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور ، وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره . وله تأليف

كثيرة في المنطق والطب والرياضيات . وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بجران . ثم كان ابنه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قره . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ، ولهم من المنزلة ما علمت ، ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة .

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام ، ولم يضمن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل تريد أن أتم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا أسبى الدرجات ، وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي — وهو بصرى الأصل — ابن الأمير اسحاق الذي كان أميراً للمهدى والرشيد على الكوفة ، وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عالماً بالطب

والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى ، واشتغل بالترجمة كما
اشتغل غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح
الغامض منها ، وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم
وولده أحمد ، هل أنا في حاجة إلى ذكر بنى موسى بن شاكر :
محمد وأحمد والحسن ، الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية
ومعرفة محيطها وقطرها ، وما كان لهم من المنزلة عند الأئمة
والخلفاء ؟ أذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله إلى
مسند الوزارة عند شمس الدولة ، أم أذكر الفارابي وما كان له
من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان ؟

لاريب أن أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلاً ممن
تعنى الجامعة بنشر تراجمهم ، وقد قال ما لم يقل بمثله فولتير وروسو
وقد مات مع ذلك على فراشه . وقبره اليوم مزار يرحل إليه
في بلده .

أظن أنه سهل بعد سرد ماعددناه أن يعرف قراء
الجامعة أن الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه
للقريب بميزان واحد ، وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل

على أن ألتبس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت
تمثلت لها بعض حوادث . قيل إنها حدثت للدين وما حدثت
له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء ، أو جهالة عمياء .
أو تأريث بعض السفهاء .

لا أطيل خوف الأملال وانتقل الآن إلى الأمر الثالث
وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق .

طبيعة الدين المسيحي

تمهيد

ظنت الجامعة أن الدين المسيحي فصل بين السلطة
الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان في طبيعته التسامح أما
الدين الإسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني
وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها .

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين
واستعدادهما للتسامح مع العجم ، أو مع أية عتيدة تخالفها ، بل
لابد من بيان أركان الدين ، وأهم أصوله التي ترجع إليها جميع
الفروع ، وغنها تصدر الآثار الحقيقية .

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من

القضايا يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله ، فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه .

وإنني أوجز القول في إيراد الأصول الأولى التي وردت في الأناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين ، وجاءت في كلام أئمتهم الأولين ، ثم إيراد ما جر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين .

الأصل الأول للنصرانية : الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي . وأقوى عماد له هو خوارق العادات . تنقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الأناجيل يطول شرحه . ثم إنه جعل ذلك دليلاً على صحة الدين لمن يأتي بعده ، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الاصحاح العاشر

من إنجيل متى وغيره ، إذا تتبعنا جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات ، على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه ، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص .

زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون . كما قال في الإصحاح السابع عشر من متى ١٠ « فالحق أقول لكم . لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفي الحادي عشر من مرقس ٢٣ : « لأنني الحق أقول لكم : إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون ، فبهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم » .

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة وأن

للعال والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاماً في معلولاتها أو
ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها، أو ما استحال وجوده لوجودها
كان مضاداً لهذا الأصل في أى زمن . وقد كان كل علم من
علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد
لهذا الأصل ، ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج
إلى البحث في الأسباب والمسببات ، لأن اعتقاده في الشيء أن
يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله ، فهو في غنى
عن العلم والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتمالاً إذا جاء يراحمه
في سلطانه .

الأصل الثاني للنصرانية - سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي
منحت للرؤساء على المرءوسين في عقائدهم ، وما تكنه ضمائرهم .
وقد أحكم هذه السلطة ماورد ١٦ : ١٩ من إنجيل متى « أعطيك
مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون
مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً
في السموات » وفي ١٨ : ١٨ منه « الحق أقول لكم : كل

ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء. وكل ما تحلونّه على الأرض يكون محلولاً في السماء .» .

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك ، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها . فليس المعتقد حراً في اعتقاده ، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله . بل عيناً قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه . فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة . وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالاً

الأصل الثالث للنصرانية - ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانتقال إلى الآخرة . تجد هذا الأصل في الأناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الأولى عثرت به . وتجد الأوامر الصادرة بالانتقال إلى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة في الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من إنجيل متى . فما جاء في السادس : « لا تقدرّون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا

لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ - إلى أن قال - ٣٣ ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره ، وهذه تزد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : ٢٣ « الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله » وفي العاشر : « ٩ لا تفتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحت على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ : ١٠ من متى) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل . »

ثم إن ملكوت السموات قد نيط أمره بالآيمان المجرد عن النظر في الأكوان ، فإذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر في أي علم ، والعلم لا دخل له في شؤون ٣ - الاسلام والنصرانية

الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ؟ لا ريب أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها ، وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده ، فان عبادة الأنجيل ليست شيئاً سوى الايمان والصلاة .

الأصل الرابع للنصرانية

الايمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل رابع ، وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول ، لا يختلف فيه كاثوليك ، ولا أرثوذكس ، ولا بروتستانت ، وهو أن الايمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس أنسينم « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان ، وهو الوسيلة الفردية إلى النجاة ، في حاجة إلى نظر العقل ، والكون وما فيه لا يهم من أن يحيل فيه نظره . وقول القديس « ثم اجتهد بعد أن فهم ما اعتقدت » نوع من التفضيل على النزعة البشرية

إلى الفهم^(١) وعلى الميل الفطري إلى تصوير ما يتعلق به الاعتقاد ،
وإلا فجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل
لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما يتعلق به
إيمانه ، فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه
على إيمانه بغير المفهوم .

الأصل الخامس للنصراية

أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في
المعاش والمعاد .

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس وهو أن الكتب
المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج
البشر إلى عامه ، سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية ، والآداب
النفسية ، والأعمال البدنية ، مما يؤدي إلى نيل السعادة في
الملكوت الأعلى — أو كان من المعارف البشرية التي يتأني
للعقل الانساني أن يتمتع بها .

قال تيرتوليان — وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي

(١) إلى الفهم متعلق بالزعة وهي النزوع والميل

في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة - :
« إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ، ودليل
صحة هذه الكتب قدمها ، وكونها أقدم من كتاب أميروس
وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين ، وأقدم من
تأسيس الحكومة الرومانية نفسها . والزمن ناصر الحقيقة ،
ثم تحقق النبوات التي وردت فيها » ثم قال « إن أساس كل علم
(عندهم) هو الكتاب المقدس وتقاليده الكنيسة ، وإن لله
لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط ، بل علمنا
بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون ، فالكتاب المقدس
يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه »
فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض
وما فيها وتاريخ الأمم - مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو
خالف شاهد الحس ، فعلى الناس أن يؤمنوا به أولاً ، ثم يجتهدوا
ثانياً في حمل أنفسهم على فهمه ، أى على تسليمه أيضاً كما ترى .
وقال بعض فضلائهم : إنه يمكن أن يؤخذ من المصادن
بأكمله من الكتاب المقدس .

الأصل السادس للمصريين

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين

ينتظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى ، ذلك الأصل هو الذي ورد في الاصحاح العاشر من إنجيل منى وهو : « ٣٤ لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً ٣٥ فإنى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حمااتها ٣٦ وأعداء الانسان أهل بيته » .

وقد صرح في عدة مواضع من الإنجيل أن الاخلاص بشيء من محبة المسيح أو بالالتقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك ، وإن كان قد جاء في مواضع كثيرة أن الايمان وحده كاف في الخلاص ، غير أن روح الشدة التي جاءت في قوله : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً الخ » هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي ، وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر .

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الأولون عن شواغل الكون
وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهاراً للفني بالآيمان والعبادة عن
كل شيء سواهما ، وحجروا على همم النفوس أن تنبض إلا
إلى الدعوة إلى ذلك الآيمان وتلك العبادة ، ووسائل الدعوة
هي الآيمان والعبادة كذلك ، فإذا نزع العقول إلى علم شيء
من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا
العلم بين دفتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه
من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه ، بل إن
يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة ، خوفاً من الزيغ عن الآيمان
السليم — البروتستانت رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير
الكتاب المقدس — ^(١) ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق
بين الأقارب والأحبة إنما جاء حاقطاً لذلك كله ، فإذا خطر على

(١) هذه جملة استدرائية معترضة لدفع اعتراض من يحتاج على إطلاق الحكم بحصر فهم نصوص الدين في رؤساء الكنيسة ، وقد كفر هؤلاء الرؤساء البروتستانت بهذه البدعة وغيرها .

قلب أحد خاطر سوء يرمى إلى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة ، كما أفهمه المسيح بعمله ، على حسب ماورد في الانجيل . فقد قيل له : « ٤٧ أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك » ٤٨ فأجاب وقال للقاتل له : من هي أمي ومن هم إخواني ؟ ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخواني « ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نباتاً ثم شجراً ، فانظر إلى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة .

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة : « إن الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يحرون على هذه القاعدة ببركة ماورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الأديار ، ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير

٤٠ طرد البابا للنجم المذنب مقاومة النصرانية للعلم وتنكيلها بالعلماء

الايمان على وجه ظاهر . وبقى غير القسيسين في جهالة حتى
بأمور الدين وحقائقه وأسراره .

ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي^(١) في سنة
١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوروبا ولجأوا إلى البابا واستجاروا
به فأجارهم وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة من
لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة !!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدى رأيا يخالف صريح ما في
الكتاب ، وعندما أظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد
قبل آدم أي إن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطيء
آدم بالأكل من الشجرة ، قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة
وانتهى الجدل والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل
شخص يعتقد ذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن
الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك .

(١) أي ظهر النجم ذو الذنب الذي ينسب إلى «هالي» ولا أدري
كيف فاتني مراجعة الكاتب «رح» في تأنيث هذا النجم بوصفه
بذات الذنب وكذا التعليق عليه بعده ؟

أُحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ، ثم إن تيوفيل بطريك الاسكندرية اتحل أدنى الأسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف ما بقى في مكتبة البطالسة ، بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أورو سيوس المؤرخ : إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الامبراطورى بإتلافها بنحو عشرين سنة . ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيباً مفوهاً له على الشعب سلطان بفصاحته . وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيباني الرياضية تشتغل بالعلوم والفاسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أخر ، خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يمكننى أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل ، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين ، فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دارندوتها ، وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة

وقتلوها هناك ، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقى في النار . يقول المؤرخ راوى هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيأتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة » .

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء ، فلتراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك في طبيعة الدين : أن من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الأصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده . وعند ما جاء إلى بطرس اعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه ، فاطلع بطرس على حقيقة الأمر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ، ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنبه فوبخها بطرس وأخبرها بموت

وجها فماتت هي أيضاً . فإذا كان الله يسلب الحياة جزاء على ختلاس الرجل شيئاً من من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسول كيف تكون الحياة من حقه إذا خالف خلفاء الله في الأرض نابذهم فيما يستقدون ؟

قال البابا أنوثان الثالث — عند الكلام في مصادرة الذين مخالفون العقيدة الكاثوليكية « لا يجوز أن يترك الأولاد لجاهدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم من وإحسان » فلم قصر الجزاء على الجاهدين ولكن عداه إلى أولادهم . وعد رك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الاحسان عليهم . أنهم لا حق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم .

مقاومة المصراينة للعلم

لأجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا في أثناء المنازعات لدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك ، وأخرى يجمع للجامع ، وثالثة بسفك الدماء ، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها

من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون، وما كان يقع بين ملوك أوروبا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ . وليس من موضوعنا الكلام فيه ولكنى أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوروبا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس واحتكاك الأوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية .

رجع الآلاف من الفزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة . فلما قفل الفزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة، وذوى ود ووفاء وفضل مجاملة .

تم كان الخليفة الحكيم الثانى جعل من بلاد الأندلس فردوساً . كما قال الفيلسوف الأميركانى ، وكان اليهود

والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية قال بطرس المحترم الشهير : إنه رأى كثيراً من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقى العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا ، وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أى بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة ، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب - نسخ وتذهيب وتجليد الخ ماقال .

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ، ثم وجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم من أهالى أسبانيا ومن حملوه مما جاورها ثم انساب إلى العلم شيء مما سماه الأوريون فلسفة ابن رشد ، عند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على السنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليده الكنيسة .

قال دى رومنيس : إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء

الشمس في نقط الماء ، جُلب إلى روما وحبس حتى مات ثم
حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار ، وقيل في
علة الحكم : إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكترا ، وأى
ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب
القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

أنشئت المراقبة على المطبوعات ، وحتم على كل مؤلف
وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو
المجلس الذى عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجمع المقدس
بحرمان من يطبع شيئاً ، لم يعرض على المراقب ، أو ينشر شيئاً لم
يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر
حتى لا ينشر ما فيه شيء يوصى إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ،
ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق
الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر
بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجرى
عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين) .

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف
 لظهورهما يسعى تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً
 في جنوب فرنسا وإيطاليا . . أنشئت هذه المحكمة الفرية
 طالب الراهب توركاندا .

تامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، ففي مدة ١٨ سنة —
 من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ — حكمت على ١٠ آلاف ومائتين
 وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ٦
 آلاف وثمانمائة وستين بالشق بعد التشهير ، فشهروا وشنقوا ،
 وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات
 مختلفة فنفذت . ثم أحرقت كل تورااة بالعبرية .

ماذا كانت وسائل التحقيق عندهذه المحكمة « المقدسة » ؟
 وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم ، وتجري عليه أنواع العذاب
 المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه
 وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في
 فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد

ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة ،
 لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من
 تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول
 ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب
 العلم والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها
 مها اشتد خفاؤها : في المدن . في البيوت . في السرايب .
 في الأتفاق . في المخازن . في المطابخ . في المغارات . في الغابات
 وفي الحقول . فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللاتقين
 بأصحاب الغيرة على الدين ، عملاً بالقول الجليل « ماجئت لألقي
 سلاماً بل سيفاً » .

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في
 كنائسهم ، والأشراف في قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ،
 والصناع في مصانعهم ، والعامّة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما
 وجدوا . وأينما تقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ، وتصدر الأحكام
 عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع « لاتران » أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أدائه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) .

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يدر من لسانه في بيته ، وما يظهره في أعماله بين أهله . فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فإذا سئل عن الشاهد الذى عول عليه في اتهامه لا يجاب ، وإما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد ، وهو من أهله حتى يعترف .

أوفعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يسمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، ومن ورود الفكرة

٥٠ اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود وطرد من لم يتنصر من الأندلس

العامية إليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه » .

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة ، منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء .

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوروبا على زعم القسوس ، وكان ابن رشد أستاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود ، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ، ثم هو مع ذلك مسلم ، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً ، فصدر الأمر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان ، يجب أن يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا في

الثلث ذهباً ولافضة ، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات
ومن ذا الذى يشتري اليوم بثلث ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر
بلا ثمن ؟ (يعنى أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم
الذى تم فى يوليو) وصدر أمر (توركاندو) أن لا يساعد
أحد من سكان اسبانيا فى أمر من أمورهم . وهكذا خرج
اليهود ، تاركين كل ما يملكون بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير
منها ، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر .

وفى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء
الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها — من لم يقبل
المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان)
وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذى وضع لليهود
ولكن وضع للمسلمين شرط آخر ، وهو أن لا يذهبوا فى طريق
يؤدى إلى بلاد إسلامية ، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل .
فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء
عند الرجوع فاموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع
ألا يعجب القارىء إذا رأى أن (برونو) يحرق بالنار

حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود ، وقال إن هذا العالم يحتوى على عوالم كثيرة ! الحمد لله رب العالمين .

ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون وصار رأياً لهم في أول خلافة بنى العباس ، ولم تتحرك له شجرة في بدن — فأحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ولا يسمع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه .

هل يصدق القارىء أن ما قصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الاطلانطيقي لعله يكتشف أرضاً جديدة كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة ، وحكم بجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين . ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كرينستوم وأوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والأنجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة ، ولم ينتج هذا العرض شيئاً ، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال

كريستوف كولمب « إن الذى أوحى إليه هذا القصد النبيل
هى كتب ابن رشد » من هنا تفهم لم قامت الكنيسة وقعدت ؟
قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم ؟

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل « السلطة
للقسوس والطاعة على العامة » كل رأى لم يصدر عن ذلك
المصدر الدينى الذى يربط ويحل فى الأرض والسماء فهو باطل
تجب مقاومته بكل ما استطاع ، لهذا حكم على غاليلى الذى
ذهب إلى أن حركة الكواكب هى على النظام المعروف
عند الفلكيين اليوم .

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد

هل تدرى ماذا حصل من المقاومة لأدخال الحقن تحت
الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين
فى الأستانة ، ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة تسمى مارى مونتاجو
سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا فى استعمالها
واحتيج فى تفضيدها إلى التماس المساعدة من ملك انكلترا ،

وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشف طريقة تطعيم الجدرى .

مقاومة تسهيل الولادة

أنى مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق . اكتشاف أمريكي رأى حضرات القسوس فيه أنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التى سجلت عليها فى سفر التكوين (إذ جاء فى الأصحاح الثالث منه : وقال للمرأة : تكثيراً أكثّر أتعاب حملك ، بالوجع تلدين أولاداً)

مقاومة السلطة المدنية وعبرية الاعتقاد

نشر البابا منشوراً فى سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يعتقد بأن الشخص حريفاً يعتقد ويدين به ربه وفى منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا

نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ، ودعا الروم الأرثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه .

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأي رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي ، فخرمه البابا وطلب من الحكومة عزله ، وكانت إحدى العضلات السياسية ، غير أن عزيمة بسمارك نصرت مدينة القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة ، وأبقت الأستاذ ، وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية .

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب

لا أذكر الجمعيات العلمية (الأكاديميات) التي ألغيت والاجتماعات التي عطلت ، لا شيء كان فيها ، سوى هذا البشر إلى منافعهم ، وتنوير بضائهم بكشف ما احتجب من سر الخليقة بالبحث النظري . ومن الطريق العقلي . غير استشارة المسيطر الإلهي — وهو الكنيسة — ولا أذكر شيئاً واحداً وهو أن الكردينال اكسيمينيس أحر

في غرناطة ٨ آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد .

البروتستانت ، أو الإصلاح

ربما يقول قائل : إن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين إلى أصل الكتب المقدسة ، ويبيحون للعامة أن ينظروا فيها ويفهموها ، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ، ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالغرب ، وبسط للعلم بساط التسامح ، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جرياً مع طبيعة الدين . لا أذكر في الجواب عن ذلك إلا ما ذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الإصلاح : استمرت عقوبة الموت قانوناً يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة ، وقد أمر كلفان^(١) بإحراق (سيرفيت) في جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقة ، وكان

(١) كلفان هو الزعيم الثماني للبروتستانت ولوتر الأول .

يقول إن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه
علي هذا أن شوى على النار حتى مات ، وكذا أحرق (فايقي)
في تولوز سنة ١٦٢٩

كان لوثير أشد الناس إنكاراً على من ينظر في فلسفة
أرسطو ، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير
الذئس الكذاب ، ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها إذا
صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان
كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثير ، لكنه لم يكن أحسن
ظنا به ولا أوسع صدرأ لمن يطلع على شيء من كتبه . وكان
علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الأول » فتأمل
الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم
الكتب المقدسة ويأبطلون السلطة على غفران الذنوب والتجارة
ببيع الثواب والسعادة الأخروية ، وإبطال عبادة الصور .
ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة
هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري ، كما أنها منبع نور

الايمان بالدين الالهى ، وأنه لا يباح للعقل أن ينساق فى نظره إلى ما يخالف شيئاً مما حوته ، وأنه لا حاجة إلى شىء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة إنهم لم يبطلوا أصلاً من الأصول الستة التى تقدمت . إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء فى سلطتهم المبذية على الأصل الثانى فى سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم . ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك ، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهى القائمة على الأصول الستة) ولم يكن لأهل النظر العقلى جزاء فى كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم .

لو كنت ممن يحب الجدال فى الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحى ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية ، واضطهادات الكنيسة . « ما أهون الدم على من يمثل فى عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الانسانى من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البرىء على يد المعتدى الأثيم » لكنى فى بحثى هذا لا أريد

أن أستعمل قوة الخيال ، ولأن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وإنما آتى بما هو حكاية حال ، ليس للنظر فيها مقال .

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقى علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية . وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى إلى التسامح مع العلم في نظرها . لو سامنا أن في تلك العبارة معنى الفصل — كما قالت الجامعة . وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السطة الدينية — فإذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضى عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاة الروحانية على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته ؟ هب أن مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الإيمان والوجدان ، وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين ، إحداهما : تحمل وتربط في الأرض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين . والأخرى تحمل وتربط في

الأرض فيما هو من خصائص الدنيا ، أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين ، وطلب كل واحدة منها التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتها معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني ؟ إذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية ، وتأويل الرؤساء الروحانيين وسننهم ، فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفقصر الأخرى ؟ هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين .

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية .
تقف بها عند حدها ؟ والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ، ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس ، وتديرها كيف تشاء . والملك لا قوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية :

لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة إلا بعد أن يتناول من الوسائل ما لا يعد لأضفاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل .

التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها ، والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها .

ثم هل هذا هو معنى قول الأنجيل : القصة على ما جاء في الأنجيل .

إن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ما ينم به ، فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب : لم تجربوني ؟ اثبتوني بدينار لأنظر إليه . فأتوه بدينار ، فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر ، فقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة : أن صاحب السكة التي تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله وعليه طابع صنعته ، فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً ، العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية . فأى تسامح مع العلم في هذا ؟

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاركته فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه . كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم . ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكلون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم .

أما رأي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين في المسيح عليه السلام ودينه : فهو على غير ما رآه القارىء . إنا نعتقد أن المسيح روح الله و كلمته ^(١) ورسوله إلى بني إسرائيل بعث مصداقاً لما بين يديه من التوراة . وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم . ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم . ولم يطالبهم

(١) أي من روح الله ، فالإضافة بمعنى من ، أو روح من الله لا من الشيطان ، و كلمته التكوينية ، أي إرادته المعبر عنها بقوله لأشئ (كن فيكون) قال تعالى فيه (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و كلمته ألماها إلى مريم وروح منه) وقال في أمه (فنفخنا فيه من روحنا)

بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها ، بل طالبهم
 بشكر الله تعالى عليها ، ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها
 جميعاً فيما أعدها الله له . والمقل من أجل القوى بل هو قوة
 القوى الانسانية وعمادها ، والكون جميعه هو صحيفته التي
 ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى
 الله وسبيل للوصول إليه . وكل ما صبح عندنا عن السيد المسيح
 لا يخالفه شيء منه . هذا الذي نعتقد . فإن صح عنه شيء يكون
 في ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه
 إليها أو وكلنا الأمر فيه إلى الله وقدنا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) .
 الدين دين الله وهو دين واحد في الأولين والآخرين ،
 لا تختلف إصوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقته ما طولب
 به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير :
 إيمان بالله وحده^(١) وإخلاص له في العبادة ، ومعاونة لناس
 بعضهم لبعض في الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا

(١) أي بربوبيته وألوهيته وحده ! أي لا رب غيره ، يدبر أمور
 الخلق ويشرع لهم الدين ولا إله غيره يستحق العبادة .

هذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم
لكمال الهداية ، ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم
على هذه الأصول ، ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف الواقع بين
أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى الاتفاق والاخاء والمودة والاتلاف
وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم
بالاسلام .

فإذا سأل سائل : إذا كان الذي قدمت فيما سبق هو
اعتراف فضلاء الأوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم
واشتداده في معاداته ، فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوروبا
وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها ؟
فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت الجامعة ،
وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي ، وما يليق أن
يكون له مع العلم ، وما انجر إليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة ،
وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات
الأيام ، وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى .

القسم الثاني في الاسلام

طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول

للاسلام في الحقيقة دعوتان — دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجبا الوجود عالما حكما قادرا، وأن ذلك الصانع واحد لوحدته النظام في الأكوان، وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد، فنبهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب م — ٥ — الاسلام والنصرانية

ماء فتحيها به الأرض بعد موتها، وتثبت ما شاء الله من النبات والشجر، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته — كل ذلك من آيات الله، عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته .

تم قد يزيد تنبيهها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوالمه، فيذكر ما كان عليه الأرض في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون) ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجرى شوطه الذى قدر له في طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان، وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة، كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام : « كان في عماء تحته هواء ^(١) »

(١) رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض) والحديث من التشابهات، ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون في أصل مادة العالم التى يسمونها بعضهم القديم . وفي معنى الحديث: قوله تعالى فى التكوين (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

والعلماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارئ القرآن يغتنى عن سرد الآيات الداعية إلى النظر في آيات الكون — (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟) (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) — (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن ، بل من نصفه في مقالى هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله في الأكوان تحريكا للعبارة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لاتقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (ما اتخذ الله من ولد . وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون) .

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله
ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدلائل العقلية . والفكر
الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما نسميه
بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة . ولا يغشى بصرك
بأطوار غير معتادة . ولا يخرس لسانك بفارقة سماوية .
ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . وقد اتفق المسلمون —
إلا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم — على أن الاعتقاد بالله مقدم
على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد
الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل
ولامن الكتب المنزلة ^(١) فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله

(١) أي لا يؤخذ منها بالتسليم ابتداء ، ويجعل حجة على الخصم
بناء على أنه من الله ، ولا ينافي هذا أنه يؤخذ منها باعتبار ما يقيمون
من البرهان على ذلك ، لا بمجرد التسليم ، ولا باعتبار أنهم رسل الله
ثم بعد الإيمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالأخذ عنهم ، وهذا الكلام
ساقه الأستاذ الإمام في مقام دعوة الإسلام وطريقة الاقتناع به ، لا في
تقرير عقائده لأهله في تربية أولادهم وتعليمهم — فهذا يؤخذ من
من القرآن والسنة مباشرة ، ثم يوضح بالأدلة العقلية والعلمية ولا سيما
الماثورة . والجري فيه على أسلوب محاجة المنكوبين في الدعوة إليه
مفسر شامئذ المدارس والمعوام

الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ، لينتقل منه إلى تحصيل الايمان بالرسول وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة ، وما أدرالثما هو خارق العادة الذي يعتمد عليه الاسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده ، وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو اشتهر أضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فإذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد إن حصل أصله ، وفضل من التأكيده لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده ، وليس من اختراع البشر —

هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم .
وقد نزل على ونيرة واحدة ، هادياً للضال ، مقوماً للمسوج .
كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذاً لهم من
خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه ^(١) وهو مع ذلك
من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد
دعا الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله ففجزوا
ولجأوا إلى المجادلة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين
به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم . وكان من أمرهم ما كان
من انتصار الحق على الباطل ، وظهور شمس الاسلام بعد عالمها
بأضوائها ، وتنشر أنوارها في أجوائها .

وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ،

(١) هذا أقوى وجوه الإعجاز المعنوي في القرآن ، وهو اشتماله
على العلم والعرفان والهداية الكافلة بحقيقتها وتأثيرها لصالح الأمم
الفاسدة العقائد والأخلاق والأعمال ، بعد انتقادها من الضلال ، وذكر
بعده إعجازه اللفظي ، وفيه معجزات أخرى ينساها في تفسير آية
التحدى من سورة البقرة المذكورة في الصفحة التالية فتراجع في الجزء
الأول من تفسير المنار (صفحة ١٩٠ - ٢٢٩)

وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم .
 فإن وجدوا طريقاً لا بطل إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلاً على
 المدعى فعلهم أن يأتوا به ، قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما
 نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال : (أفلا يتدبرون
 القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)
 وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة . ولم يطالبهم بمجرد
 التسليم علي رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما
 يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته
 القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر في أحصائها ، ونشر
 ما انطوى في أثنائها . وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي
 معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثها . ولكنها دعت كل
 قدرة أن تتناول ما نشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب
 معروف للموت ، أو حياة ميت . أو إخراج شيطان من جسم
 أو شفاء علة من بدن . فهي مما ينفع عنده العقل ويحمد لديه
 الفهم . وإنما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم

الوهم ولم يضيء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات ^(١) .

ثم إن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة الله في الخليفة ، ولا حاجة إلى بيان ذلك ، فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف .

الأصل الأول للمسلم

النظر العقلي لتحصيل الإيمان ^(٢)

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية .

(٢) هذا الأصل وما بعده ضد الأصل الرابع من أصول النصرانية

وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يشور عليه ؟
بلغ هذا الأصل بالمسامين أن قال قائلون من أهل السنة :
إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . فأى سعة لا ينظر إليها الحرج أكل من هذه السعة ؟

الأصل الثانى للإسلام

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض
أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل
أن أنتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن
لا ينظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل ^(١) أخذ بما دل

(١) يعنى إذا تعارض الدليل العقلى القطعى مع ظاهر النقل غير
القطعى الرواية والدلالة — كما صرح به فى العنوان — يؤخذ بالدليل
العقلى القطعى الخ ، وخرج بالقطعى النظريات العقلية غير القطعية كأكثر
نظريات الفلاسفة والمتكلمين ، فهذه لا تقدم على ظاهر النقل الصحيح
وإن لم يكن قطعى الدلالة (فان قيل) وما تقولون فى تعارض الدليلين =

عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة
المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتقويض الأمر الى
الله في عامه ، والطريق الثانية : تأويل النقل مع المحافظة على
قوانين اللغة ^(٢) حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل .

وهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل
النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل ،
وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد
فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من
هذا ؟ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم

==القطعيين من العقل والشرع ، وبيهما تقدمون ؟ قلنا كما قال شيخ الاسلام
ابن تيمية (رح) إن القطعيين لا يتعارضان ، وإن صحيح المنقول في الاسلام
موافق دائماً لصريح المعقول ، ففرض التعارض بينهما باطل .

(١) خرج بهذا القيد تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وأمثالهم
والنأذين طريق الخلف ، والتفويض طريق السلف ، ولكن لا كما
قال الأستاذ ، بل مذهبهم إمرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل
ولا تأويل ، فنقول استوى على العرش ، لا كاستوائنا كما أن علمه ليس
كعلمنا ، وكذا قدرته الخ .

هذا القضاء ؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض
يجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

أصل ثالث

من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين
وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو إذا صدر قول من قائل
يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الايمان من وجه واحد
حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا
مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق
بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان
من وجه واحد من مائة وجه ؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان
الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ، ويؤخذ بيديه
ورجليه فيلقى في النار .

أصل رابع في الإسلام

الاعتبار بسنن الله في الخلق ^(١)

يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتبار — وهو أن لا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات — أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها — ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر، وفي آثار سيرهم فيهم .

فما جاء في الكتاب العزيز مقررًا لهذا الأصل (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . — سنة من فد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولن تجد لسنةنا تحويلاً — فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً — أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) الخ .

(١) هذا الأصل ضد الأصل الأول للتصراية «راجع ص ٢٦»

في هذا يصرح الكتاب أن الله في الأمم والأقوام سنناً لا تتبدل ، والسنن الطرائق الثابتة التي تحرى عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهي التي تسمى شرائع أونواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات ؟ الذي ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويدينى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، آتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجاف عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية ، عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها ، في أى لباس وجدت ، وفي أى صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة

أولئك الوثنيين أعداءه الأقرين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوصاع اللسان ، ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأصاليبه ، ولن يكون ذلك إلا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومثثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون -- ركبوا الأسفار ، وأنفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسل بذلك إلى فهم كتاب ربهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه ^(١) متى حسنت النية في تناوله وهذا باب من التسامح لا يقدر سمته إلا أهل العلم به ، وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام

(١) أي قد يعد الإسلام من الدين الذي يتقرب به إلى الله — الاشتغال بعلم غير ديني بنية صالحة كنفع الناس به .

سريانياً كان أو عبرانياً (أو آرامياً) وكتبوا الأنجيل باللغة اليونانية، ولم يكتب في العبرية إلا أنجيل متى فيما يقال. ألا ترى أن اسم الأنجيل نفسه يوناني؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم، ويعظمهم بلغتهم، وتخرجهم من النظر في دواوين آدابهم، وما توارثوا من عاداتهم.

الأصل الخامس للإسلام

قلب السلطة الدينية (١)

أصل من أصول الإسلام انتقل إليه — وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والأتان عليها من أساسها.

هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله ساطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبغاً ومذكراً، لامهيناً ولا مسيطراً، قال الله تعالى: (فذكراً إنما أنت مذكر، لست عليهم

(١) هذا الأصل ضد الأصل الثاني من أصول النصرانية راجع

بمسيطر) ولم يحمل لأحد من أهله أن يحمل ولا أن يربط لأفئ
الأرض ولا في السماء . بل الإيمان يحتمل المؤمن من كل رقيب
عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق
إلا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام
— على آخر — مهما انحطت منزلته فيه — إلا حق النصيحة
والإرشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : (وتواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
ويأصرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)
وقال (فاولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين
ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليه لعلهم يحذرون) فالمسلمون
يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير — وهم المراقبون
عليها — يردونها إلى السبيل سوى إذا انحرفت عنه . وتلك
الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير
ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتبع عورة أحد .
ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد

وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسط أحد من سلف ولا خلف ^(١) وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كتقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة ، وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وثىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما ، وله بل عايه أن يطالب المحجب بالدليل على ما يحجب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال .

(١) يعني لا يجب على المسلم أن يجعل أحداً من علماء السلف أو الخلف واسطة بينه وبين الله ورسوله ، يتقيد برأيه واجتهاده في فهم كتاب الله أو سنة رسوله . وأما معرفة ما كان عليه سلف الأمة في عصر النبي (ص) فقد صرح الأستاذ بوجوبه بمد ثلاثة أسطر .

فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجرى عليه في عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغبط الحق . ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لاقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير ، فلا بد أن تكون في واحد ، وهو السلطان أو الخليفة .

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً ، أى أن يكون من العلم باللغة العربية ومما معها — مما تقدم ذكره — بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه

من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو — على هذا — لا يخصصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة في الحكم ^(١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه ^(٢) « لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(٣) فإذا فارق الكتاب والسنة في

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء المذنبين قصره عنهم في الفهم والعلم ، ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس ، لأنه في رتبة المستفيد .

(٢) من شواهد ذلك : قول الخليفة الأول رضى الله عنه في خطبته « وإن زغت فقوموني » راجع ص ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع

(٣) حديث رواه البخاري ومسلم وغيرها راجع ص ٣٢ من مجلد المنار الرابع .

عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مقسدة تفوق المصلحة فيه ^(١)

فالأمة — أو نائب الأمة — هو الذى ينصبه ، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه ^(٢) .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أى سلطان إلهى ، فإن ذلك عندهم هو الذى يفرد بتلقى الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة ، بل بمقتضى الإيمان . فليس للمرء من مادام مؤمناً أن يخائنه ، وإن اعتقد أنه عدو لدين الله وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يسميه من شرائعه لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهرا : هما

(١) مثال ذلك : أن يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها . ودرء المناسد مقدم على جلب المصالح .

(٢) قد فصلنا هذه الأحكام ومباحثها فى (كتاب الخلافة أو الإمامة المظلمة) .

دين وشرع . هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى ولا تزال الكنيسة تدعى الحق في هذه السلطة كما سبقت الإشارة إليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع ، وتنسخ ما تشاء وتراقب ، وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبجاً للخير الأعظم^(١) عندهم ثم هم يرمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن

(١) إن البروتستانت الذين ابتدعوا هذا الفصل أعطوا ملوكهم حق حماية الايمان ورياسة الكنيسة كالانجليز والامان ، ويتوجونهم تقويجاً دينياً ، وقد اعترفت إيطاليا أخيراً للبابا بدولته السياسية المدنية ومملكة الفاتيكان التي يدعيها ، والاشراف على التعليم الديني في مدارسها ولكن بدون ما كان لسلفه الأولين . فازدادت هذه الدولة بهذا التمدن قسوة ووحشية في حربها لمسلمي برقة وطرابلس ، من إبادة واستئصال وهتك أعراض بما أعاد الحرب الصليبية سيرتها الأولى .

السلطتين في شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك في رأى المسلم: أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه ، وهو منفذها ، والإيمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع ، وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحرم حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام . وعامت أن ليس في الاسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسامين ، يقرع بها أنف أعلامهم ، كما خولها لأعلامهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتخرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون

السلطة الدينية في الاسلام هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٧

والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء
وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد .

يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني
أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الاسلام ؟

وأقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على
العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء
فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد
منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه .
أويتازعه في طريق نظره ^(١)

(١) وظيفة القاضي معروفة ، وهي الفصل في الخصومات التي ترفع
إليه ، ووظيفة المفتي بيان المسائل التي يسأل عنها ، ولكل عالم أن يرد
عليه إذا أخطأ . ولغلب شيخ الاسلام كان يطلقه العلماء على بعض
الممتازين في العلوم ، وأطلقته الدولة العثمانية على مفتيها الرسمي وجعلت
له حق اختيار قضاة الشرع والمفتين بمقتضى قانون .

الأصل السادس للمسلم

حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا : إن الدين الإسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسألة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩-٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو ، وهى مما لا يدخل تحت الاختيار ، بل ولا محبة الصديق ، وإنما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء . لكن فى ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامى ، أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ ليس القتال فى طبيعة الإسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : (خذ العفو وأمر بالعرف

وأعرض عن الجاهلين) ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ، ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عند ما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال (١)

لم تقع حرب إسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال : إن العناية الالهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن الطويل . فتيسر له في شببته ما لم يتيسر لغيره إلا في كهولته أو شيخوخته

(١) حدث في الحرب الأوربية الكبرى بعد وفاة الكاتب رحمه الله من مثل هذا ما لم يسبق له نظير في شدته ، وجاءت الأخبار في أثناء هذه الطبعة للكتاب ان جيش إيطاليا الذي يقاتل العرب في بلاد السنوسيين من المغرب يقترف من هذه الفظائع ما تقشعر منه الجلود ، ومنه أنهم يحملون العرب في الطائرات إلى بعد شاسع ويقنونهم منها على الأرض ... دع ما يفعلون بالنساء ...

مقابلة بين الإسلام الحربي

والمسيحية السلمية

الإسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعبدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة ، خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »^(١)

(١) هذه هي القاعدة التي جرى عليها العمل في الإسلام .

« من آذى ذمياً فليس منا » ^(١) واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض سامين عن هذه الأحكام عند ما بدأ الضعف في الإسلام ، - وضيق الصدر من طبع الضعيف - فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطبيعته .

المسيحية السامية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، تراقب أعمال أهله وتخصم دونه الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر بها عظم . حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً .

لا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العدد ،

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث في الصحيح والسنن . وإيذاء الذمى والمعاهد محرم بالإجماع . وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « لا من آذى ذمياً فإنا خصمه ومن كنت خصمه ، خصمته يوم القيامة » وفي إسناده علة .

أوشدة العصد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقى سلاماً بل سيفاً ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه ^(١) والإسلام يقول كتابه في شأن الوالدين المشركين : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى) فهو في اشتداده على المهتدين لأئمة لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

(١) هذا نص الانجيل متى في هذا . ومثله قول انجيل لوقا (١٤ — ٢٥ و ٢٦) وقال لهم (يسوع) : إن كان أحد يأتني إلى ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً) وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل ، انصه (٢٧) أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فائتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي) وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الأهلين الخالفين وعلى سائر المخاربين . قال في ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع (وإذا غواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آبائك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين =

فأنت ترى الإسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخص لهم بعد ذلك عدان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قربانهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم ، وفي

= عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تلقى عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بن قنلا تقتله . الخ)

وفي سفر التثنية أيضاً (٢٠ : ١٠ — ١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستبعد لك ، وإن لم تسألك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كلها غنيمتها فتقتسمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الذي أعطاك الرب إلهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما)

طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وإن كان في عمي من الجهالة ، وخبل من الضلالة .
أقترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ،
ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن
ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبين
طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث وتقب ، وسبر وتقر ، أو شق
الأرض أو ارتقى إلى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض
الاسلام له في شيء من عمله ، إلا أن يحدث شغباً ، أو يفسد
أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح
الفساد بسماح من الدين .

الأصل السابع للمسلم

مودعة المخالفين في العقيدة ^(١)

المصاهرة

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتائية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتائية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيسها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل وصاحبه في العز والذل والترحال والحل . بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين في حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتائية . ولم تخرج الزوجة الكتائية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى (ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ،

(١) هذا الأصل الإسلامي هو ضد الأصل السادس للنصرانية

(راجع ٢٨)

إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون) فلها حظها من المودة ،
ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن إليها كما تسكن
إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له . أين أنت من صلة
المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة
وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في
طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم
وذوي القربى لو ادّعى ، أيغيب عنك ما يستحكم من رباط الألفة
بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند
من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقتين عليه ؟ ^(١)

(١) يقول بعض الصاري : إذا كان الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج
بالكتابية ليعلم البشر التسامح والتعاضف مع التباين في العقيدة
والتخالف . فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟
والجواب أن الرجال قوامون على النساء لأنهم أقوى منهم ، فليس من
العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوى يفرق دينه بينه وبين زوجته
المضمينة ويأمره بغيضا وبغض أولاده ووالده إذا خالفوا عقيدته أن
يتزوج بأمرأة مخالفة له ، وإنما أباح الإسلام ذلك لمن يدين الله بما أمر به
من العدل والرحمة ، وتمسك شريعته عليه ما فرضته عليه من حقوق
الزوجة . وهو المسلم ، زد على ذلك أن الكتابي لا يباح له دينه الزوج
بالمسلمة . لا جوداً لدينه ، يخرج به عن كونه كتابياً ، أو فسوقاً عنه
وإشاراً لشهوته عليه .

ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربّه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح الغاوى ، ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة المشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى الزوجة الكناينة لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها ؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملكته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته . أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير م ٧ - الاسلام والنصرانية

أصل في علم ، أوقاعدة لصناعة ؟ إن كان قد يخالف ظاهراً
مما يعتقد أو يميل إلى رأى غير الذى يجد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع
المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟
لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الاسلام من عناصر وأركان
كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم
لأطلت على القارىء أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب
على أن أختتم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن
فيه عن ذكره .

الأصل الثامن للإسلام

(الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ^(١))

(الصحة) الحياة في الإسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه ، وتغفل قلبه من رهبه ، وتقع أملة من رغبه ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات مافوق العادة .

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما تملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » ^(٢) .

(١) هذا الأصل ضد الأصل الثالث للنصرانية (راجع ص ٢٧)
(٢) يشير إلى حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة . كان سعد مريضاً في حجة الوداع ، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عازماً على الصدقة بثل ماله ، وفي رواية بماله كله ، فسأله النبي عما ترك لولده فقال : هم أغنياء وفي رواية الجماعة أنه لم يكن له إلا بنت ، وفي رواية أحمد والنسائي ، أنه =

(الرخص) فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ، ويصلي قاعداً .

السعي إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الأبدان ، مقدمة على صحة الأديان » فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

(الزينة والطيبات) أباح الاسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتريات ، على شريطة القصد

== أمره أولاً بأن يتصدق بالعشر ، والحاصل أنه ما زال يراجمه حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرّم الزيادة بالنص .

والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية .
والمحافظة على صفات الرجولية ، جاء في الكتاب العزيز (يا بني
آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا
إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده
والطيبات ، من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا
خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل
إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى
بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا
على الله ما لا تعلمون . (سورة الأعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا
بها فضله . ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره . كما قال (والأنعام
خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال
حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم
تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرعوف رحيم *
والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) ثم
قال (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا

منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون (سورة النحل .

الاقتصاد

ووضع قانوناً للاتفاق وحفظ المال في قوله (إن المبذرين
كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * ولا تجعل
يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً
محسوراً) سورة الاسراء .

النهي عن الغلو في الدنيا

وخشى على المؤمن أن يغلو في طلب الآخرة فيهلك
دنياه وينسى نفسه منها ، فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن
نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا إذ قال (وابتغ فيما آتاك
الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن
الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)
سورة القصص .

فترى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها . كما أنه هياً

الروح تباو غ كالمها . فهو الذي جمع للانسان أجزاء حقيقته واعتبره حيواناً ناطقاً لاجسمانياً صرفاً ولا ملكوتياً بحتاً . جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحاني أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) قد أطلق القيد عن قواه . ليصل من رفه الحياة (مع القصد) إلى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس . قد غرر فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعا . وليس في الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطلع للرجبة وراءها . بل خصها الله بالمكنة من الرقي في أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

نتيجة جمع المصالح بين مصالح الدنيا

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيتها ومرشدها وهاديها . بين شاحذين . شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا . وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة . فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن

الرضا في الدنيا بالدون وفي الآخرة بعذاب الهون ، فتري كل نفس تمضي مع استعدادها بشهادة فؤادها مضاء الزميع^(١) لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعيد^(٢) فتطلب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها ، فتسير في مناكب الأرض ولا تكتفي عن الكل ببعض ، وتبحث في ترتيبها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مديدها إلى ما في جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعدمعرفة مواقعها وحركاتها في مداراتها ، واستقامتها وانحرافها وظهورها وخسوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم . ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداد ، إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغبة ، أين هذا من ذلك الذي لا يرى

(١) هو الحازم القوى العزيمة ، يزمع على الأمر فيمضي فيه ولا يثنى والجيد الرأي المقدام .

(٢) الرعيد : الجبان الكثير الارتعاد .

الخلاص إلا في مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجدان الثنى والثروة من الحجب التي لا تحرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات ؟ كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من مظاهره إلى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله إذا توانى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، انظر إلى لطف الإشارة في الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويحمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم .

المسلمون مسوقون بنا بل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية . ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم — فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ،

وتلقيه من أية شفة وأي لسان، فإذا لاقاهم العالم في أي سبيل أو
عثروا به في أي جيل، أو ظهر لهم من أي قبيل، هشوا له
وبشوا، ونصبوا إليه وكشوا^(١) وشدوا به أو اصرهم، وعقدوا
عليه خناصرهم، ولا يزالون ما تكون عقيدته، إذا نفعتهم حكمته
« الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »^(٢) ألم
يأتهم عن ربهم: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة
فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) ألم يسمعوا
في وصفهم قوله: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).
ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً، وذلك
ماتنجر إليه طبيعة دينه، وحديث « اطلبوا العلم ولو

(١) لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيراً
ليناً. وكش الرجل كان سريعاً ماضياً، وكش كاشته شجع وأسرع
(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه غيره بألفاظ
أخرى والمعنى واحد، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما
« خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي رواية عن علي
رضي الله عنه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق »

بالصين^(١) « إن كان في سند لفظه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر . فإنه سند القرآن نفسه ، فإن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وإن كان في أول أمره مطلوباً بالغيره . مثل العلم ، تطلب العلم أولاً لاحتياجك إليه في تقويم معيشة ، أو ترفيه حال ، أو دفاع عن نفس وملة . ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه . فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة ، فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية . بل هي أفضلها على الحقيقة . وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل

(١) رواه ابن عدى في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضاً .

قوة سواها نعيمًا ولذة ، ولست في حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس ، فالحيوان يعرفها به الإنسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع وعظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لأشياء عند الإنسان ألد من كشف المجهول ، وإحراز العقول . وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلد له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح في بساط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها ، كما ذكرنا فإذا طفق يستنبط ماء للضرورة ، ويستجلى سناء الحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه في رسمه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله » .

نتائج هذه الأصول

وآثارها في المسلمين

إلى م أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية ، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والإسلام في طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ، وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذكراتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم ؛ وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين : إن

عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين (ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأى العالى : بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ، ودخل في التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع) .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ، ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم ، حتى كانت دقاتهم بالرومية في سورية ، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين ، فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

اشتغال المسلمين

بالعلوم الأدبية ثم العقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة
 على بن أبي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية
 ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك،
 وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن
 استرسالاً مع ما يدعواهم إليه دينهم، وتنبيههم لطلبه شريعتهم،
 وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت ناراها في أطراف
 بلادهم للنزاع على أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من
 مصالحهم، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها
 بالتدريج على سنة الفطرة، فالبراعة في الآداب : من علم بوقائع
 العرب وتاريخهم، وقول الشعر، وإنشاء البليغ من النثر، قد
 بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها
 وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها، ويرفعون مكانات
 الشعراء والخطباء والعلماء بالسير، ثم ظهرت آثار العلوم

العقلية في آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما سأل عنه دل عليه فذهب إليه ، فاذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك إلى معاوية رحمه الله فإذا هو في قصر مشيد محلي البنيان بأجل ما يكون من الصنعة العربية ، مزين بالجئات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أنحر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ، ولا يخفى ما في ذلك من ترويح فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها .

اشتغالهم بالعلوم الكونية

في أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس ، واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدينة أيضاً ، وأخذ المنصور أيضاً ينشئ المدارس للطب والشرعية وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه ، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفاثس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية ، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي ،

ولايسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم^(١)

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دولة الإسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مئة ألف مجلد ، منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (إحداهما) من الفضة ، يقال إن صانعها بطليموس نفسه وأنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرونز ، ومكتبة الخلفاء في أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد ، وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

(١) يلاحظ أن أشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم أعلمهم بالدين الاسلامى وأشدهم محافظة عليه ..

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم
معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال : إن سلطان بخارى دعا
طبيباً أندوسياً ليزوره فأجابه إن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج
إلى أربعائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها . وكان حينئذ
بن إسحاق النسطوري في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة
يفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية، وكان يتبرع بمذاكرتهم
فيما يريدون المذاكرة فيه .

إنشأؤهم المدارس للعلوم

وطريقة التدريس فيها

غطى بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس .
تقول « على سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية
بكثير ، فكنت تجد المدارس في كل الأقطار : في المغول ، في
التتار ، من جهة المشرق ، في صراكش ، في فاس ، في أسبانيا من
جهة المغرب .

كانت طريقة الأساتذة في التدريس أن كل مدرس يعد
دوره ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد أن

يكتب ثم يلقيه على التلامذة، وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتباً وأمالى تنشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجب ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا باذن ، على أنى لأعلم شيئاً من ذلك وقع في الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً .

نرجع إلى الكلام في المدارس الإسلامية : يقول (جبون) في كلامه على حماية المسامين للعلم في الشرق وفي الغرب « إن ولاية الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء . وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين . (وهو

نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الربيع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة ، وابن أفقر الصنائع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه . والمعمون كانوا ينقدون رواتب وافرة « اهـ .

انقسمت الممالك الإسلامية في زمن من الأزمان إلى ثلاثة أقسام ، وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والأمويون في الأندلس من أوربا (الغرب) والفاطيون في مصر من إفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاضراً على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والأدب . وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برباطة الأفلاك . ومرصد جيرالد في الأندلس يحییه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الإدراك .

جميع المدارس في البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان

في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة ، وكان من أشد النظمات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة له بأنه فاز في الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربة على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في (ساليرن) من بلاد إيطاليا ، وأول مرصد فلكي أقيم في أوربا هو الذي أقامه العرب في اشبيلية من بلاد اسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، في الأحوال الاجتماعية ، وابتدعوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين ، وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها . وكان العامون لا بناء العظماء في

أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب فى أول الأمر يونانياً ، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً ، ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً ، كما بقى الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة فى التاريخ المسيحى .

قالوا : إن (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية ، أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة ولتتمسك بأراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى أوربا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة .

أول شىء تميز به فلاسفة العرب عن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات ، وأن

لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد تقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب هي « جرب وشاهد ولا حظ تكن عارفا » وعند الأوربي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالماً » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقبت من سوء المآل .

قال (ديلامبر) في تاريخ علم الهيئة « إذا عدت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد في العرب عدداً كبيراً غير محصور » وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجرباً واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين اثنين عند العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف .

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقيقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة ، حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية .

لا يمكنني في مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها ، فذلك يحتاج إلى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لأخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم^(١) ولكنى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين^(٢)

« تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب

(١) المنار . قد نشرنا جملة صالحة من ذلك فى مقالات (مدنية

العرب) بالمجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركانى .

فنجده آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا كالرأي الجديد في ترقى الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها ، فإن هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم ، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن في أشكالها . قال الخازني : إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : إن الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من هذا أنه مر في صور معادن أخرى ، فكان رصاصاً ثم قصديرآ ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ، ولا يعلم أن الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الإنسان : إنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقى ، وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب في صور الأنواع كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك انساناً» اهـ ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد

من أنه ذهب في حرية الرأي إلى تقض أصل الدين وقال :
 إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد ، وإنما الذى يبقى هى أرواح
 الأنواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان
 بقاء الأنواع دون الأشخاص ، فانه قال كما قال أرسطو وغيره :
 إن الأشخاص توجد وتبقى ، وأما الأنواع فهى باقية لا تزول :
 وهذا باب آخر يغير بالمرّة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام
 في بيان رأيه من وجه آخر ^(١)) كما أخطأوا في قولهم عنه : إنه
 كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صورته ، والكل يرجع
 إليه ، بمعنى أنه ينفى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر . وهو
 يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسامحاً وكان
 يعرف أن الإسلام لا ينافى العلم وإنما ينافى . هذا الضرب من
 الوهم الذى لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة في طريق العلم ، أو
 الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا
 منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن

(١) يعنى قد سبق ذلك في المقالة الأولى مما نشر في المنار وقد جعلناها هنا في آخر الكتاب .

نسبة هذا الرأي إليه كما سبق بيانه ^(١) ولكني لا أنكر نسبته
لو نسب إلى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد
فإن في كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب
عن اليونانيين وغيرهم . وكانت مهيئة بين دفتي الدفاتر ، مقبورة
بين جدران المكاتب . أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها
أحجار ثينة في بعض الخزائن . لاحظاً للإنسانية منها سوى
النظر إليها - صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء
الأرواح ، وروح الثروة . وقوام الصناعة ، ومهمازاً للقوى
البشرية يسوقها إلى كمالها الذي عدت له . وليس في الأوربيين
من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل — في إخراج
أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم . وفي تعليمها كيف تنظر
وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان
الذان يبني عليهما العلم — إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم

(١) يعني قد سبق ذلك في المقالة الأولى التي ردها الكاتب على
الجامعة ونشرت في المنار وجعلناها هنا في آخر الكتاب .

التي حملوها إليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائبا لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا في أفنيون نحو سبعين سنة . فذب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر ، وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن أسبانيا « اه .

يقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفرادهم ، وان الكنيسة تساطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً » .

هذا النماء والازكاء العامي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة . بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء ، وإنما كان التفاضل بالجهد والعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمّالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته . قال بعض فلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبتته المشاهدته .

« ان شعوب الأرض لم ترق قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ
(يريد فاتحى الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه
ولطفه هذا الحد » .

أخذ الخلفاء والأمراء

بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء الذين يقال عنهم : إنهم رؤساء دين وحكام
سياسة معاً كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين إلى تعلمها
كانوا العاملين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً
أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة
الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون
الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل
رأيت في غير الإسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة
الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبداً .

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند
الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ،

وأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس - صاحب حلب - خرج إلى المعرة ، وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع في حصارها ورمائها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده ، فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير - أطل الله بقاءه - كالسيف القاطع لأن مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاط وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئاً من شعرك لترويه ، فأنشده على البديهة أبيتاً فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطل بي المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف .

إزالة شبهتين

وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة
 وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ،
 وهمس بعضهم في آذان بعض ، وتغامرهم على أهل الفضل ،
 ولمزهم إياهم بالألقاب ، بل واحتقارهم في بعض الأحيان . وهذا
 النوع منه عند المسامين بالانكير . وهو خطأ ظاهر لأن هذا
 النوع — ممن يكره أهل العلم — لا تخلو منه أرض ولا تطهر
 منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس
 أهلها ، فإن القائمين على عقيدة الكاثوليك إلى اليوم في أرض
 فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة
 ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب
 الكاثوليك ما لم يقولوه ، ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز
 في شريعة الدين ، ونحن لارتاب في أن نحو هذا كان عند
 المسامين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه

ليس من الاضطهاد في شيء ، وإنما هي نقرة الانسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله إلى حيث يشاء يقول آخرون : إن التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذوا السيف لغلوه في فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله ^(١) فتضطرب السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعى الحرية في غيوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام

(١) ذكر إمام الحرمين في كتابه (الشامل) في أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وأن ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج .

أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع ، صونا له عما
يزعزع أركانه ، ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا
الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على
الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت
سيطرة الحكومة ؟ وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من
الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه
بقوة السلاح ، وقد ينفي من البلاد كما نفي كثيرون في سنين
سابقة^(١) ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ، إنما الاضطهاد
حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش ، واضطهاد رؤساء
الإصلاح بعدها في أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ إن التعليم عند المسلمين كان غريباً
أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد
يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب
والفيلسوف والفلكي والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدي

(١) أغرب من هذا أن أحد الاساتذة في مدارس أميركا الجامعة
قرر فيها نظرية دارون المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها
للتوراة فطرد من المدرسة .

الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو في التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدّهم صلابة في أصول مذهبه ، ومع ذلك فهو من مشايخ الإمام البخاري صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تملوكل ذي منزلة عنده ، حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حباً فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لإمام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً ؟ .

إذ عدّ عادّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك ياغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب

تكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آله . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضى قضاة كآبن رشد (ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلة دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة ، أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل ، لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه . وهذا لم يقع فى الاسلام ، اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا

هذه طبيعة الدين الإسلامى عرضتها عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العالم الشرقى والغربى . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفته

وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموابه متى رضوا بأن يستظلوا
بظله ، هل في هذا خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسه
أن ينكر الضوء الباهر ؟ أفلا ييسم الإسلام عجباً وهو في أشد
الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ،
إن لم يحسبه في أحبائه ، عند ما يراه يسدد سهمه إليه ، ويجور
كما يجور الجائرون في حكمه عليه ؟؟ .

الإسلام اليوم

والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

المقال الرابع لذلك الإمام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول : سامنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي ، وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ، ولا شق لحمة العلوم الكونية ، ومقوى العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعاً لهم ؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية ^(١) كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله ، ومقالاه في الفقه والتصوف نشر في المنار وطبع على حدة ، وقد وشى به بعض حساده في دمشق إلى وإلى الشام فاعتقله الوالى وكان السبب الحقيقي لاعتقاله مقالة له في الخلافة نشرت في المقطم (راجع ترجمته في المنار ص ١٩٦ م ١٩)

لمسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية ،
 وقال إنه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزى به
 أو ما يقرب من هذا — وهو قول قال به جمهور أهل السنة
 من قبله — فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة
 العمام ، وسكنة الأثواب العباب ، وقالوا : إنه حرق من
 الدين ، وجاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض
 عليه وألقاه في السجن ، فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل
 السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق
 عليه ، بين يذى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ،
 الخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك
 كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد
 أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ،
 ولا ينكره القازى والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى
 صاحب الجيوب) كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض
 مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على

دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ،
وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد
المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء
الجامع الأزهر الشريف ^(١) فحمل حربة وطلب الشيخ
السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلاً
غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترى الأستاذ على طعن
الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه ، وإنما الذى خلص السنوسى
من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب
الجريرة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن
يلاقيه الأستاذ المالكى .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو
ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات
الطويلة الأذيال الواسعة الأردان ، فى استهجان إدخال علم
تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة

(١) هو الشيخ عيش الذى كان يسكر على السيد جمال الدين والشيخ
محمد عبده أيضاً طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف

الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يهزون عن أشرار
يأذخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم ، وأنه إنما يريد الغرض
من علوم الدين ^(١) أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام
بعضهم تشير إلى مطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة
التشهير به ، مع أنه لم يجهر بنكر ولم يقل قولاً يبعد من
الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم
من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم
الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يرحزهم
إصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وإن كان في البقاء عليه تلفهم ،
وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب ،
والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان ، أو بالقتل في
كلمة ينكرها السامعون ، وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون .
ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل
صخباً ولججاً ، وضوضاء وجلبة ، وهيئات مضطربة ، إذا قيل .

(١) يعني الأستاذ بهذا نفسه فهو الذي أشار بتعليم هذه العلوم .

إنه ينبغي لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفاً من مبادئ الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي؟ ألا تقوم قيامة المتقين، ألا يصيرون أجمعين أكتعين أبتعين: هذا عدوان على الدين، هذا توهين لمقدسه المتين، هذا تغرير بأهله المساكين، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى أن لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم؟

هل هذه الحال جديدة على المسلمين، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم، أو عرض من الأضرار الوافدة إليهم؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمرجة الأمم، خصوصاً عندما يجد الوحدة في الصفات، والشمول في جميع الاعتبارات، فلو أخذت مسلماً من شاطئ الاطلانطيقي، وآخر من تحت جدار الصين لوجدت كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي: (إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه، وإن نطق به الكتاب، واجتمعت عليه الآثار.

اللهم إلا فئة زعمت أنها نقضت عبارات التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث، لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطناً وأحرج صدرًا من المقلدين، وإن أنكرت كثيراً من البدع، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقييد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أجراء^(١)

هل يمكن أن يتكرر أحد جهود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها. وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف

(١) يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع. والاهتداء بالسنة. وتقديم الآثار، على آراء البشر، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما أرشدت إليه النصوص من علوم الأكوان، ومقدمات المدنية والعمران، التي تعجز بها الأمة، وتعلو كلمة الملة.

معروف رأيي فيها أحجموا عن إبداء الرأي ، واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها ، إلى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة في الجامع الأزهر ، فوقع الشك : هل بلد ممالأه استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق : إن كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال : إنني لا أقتنع بما في تلك الكتب ، وإنما الذي يصح أن آخذه هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال إن هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذي وقف الواقف على أهله . وإذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطر ، وبيان الحدود التي ينتهي إليها ، وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات . قال : إنما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلاً عقلياً .

وإذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات

والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الإخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعفت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة وساكتكم الحاجة وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك إلى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم في علل ما صرتم وصار الناس إليه ؟ قالوا : ذلك ليس إلينا ، ولا فرضه الله علينا ، وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فإن لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وأن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة إلا على كعب بن كعب . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة إلى عمل ؟

رأى رينان فى الاسلام

هذا الجهود — الذى لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتاباً — هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أننى أخشى أن يثبت الدين الإسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكنى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بأداب الدين الإسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جرائم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال إلى المسامحة ، إلا أننى أخشى أن تختنق هذه الجرائم بتعصب بعض الفقهاء ، فإذا اختنقت قضى على الدين الإسلامى . ذلك أنه من الثابت الآن أمران : الأول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرّة لأنها لا تصلح أن تكون وسيلة إليه . والثاني أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسالم

تلين ، وإلا كان موته اضرة لازب » اه كلام زنان بتصرف
لفظي قليل .

فمن أين يكون هذا الجود العام ، الذي سمع لاطاعين أن
يحكموا على الإسلام ، بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم
دون أن ينالوا فلاحاً في سعيهم أو نجاحاً في أعمالهم ؟ من أين
يكون هذا الجود إن لم يكن من طبيعة الدين ومن أين
يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول
الدين ؟ فإن لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الاضطهاد من لوازم
الدين الإسلامي ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمزاز
منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور
كاف - إذا عم بين المسلمين - في أن ينفر بهم عن كل مجد ،
وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به زنان
وغيره ، فما قولك في هذا ؟

الجواب

أقول : هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ،
أما ما نسمة حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس
الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العائم . إنما حركهم الحسد

لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتتشر عدواه ، فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين إلى غير الدين — إلى آخر ما يكون من حرية الفكر (التي يعوذون بالله منها) .

فإن شئت أن تقول : إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببال من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس .

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين ، فإني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التي (تخرج

في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم
لَا كلون منها فالثون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً
من حميم * ثم إن مرجعهم إلى الجحيم * إنهم ألفوا آباءهم
ضالين * فهم على آثارهم يُهرعون .

جود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجود فهو مما لا يصح أن
ينسب إلى الإسلام ، وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها
ونصوع يياضها ، ليس فيها ما يصح أن يكون أصلاً يرجع إليه
شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وإنما
هي علة عرضت للمسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد
أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم ، وكان السبب
في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم ،
هو السياسة ، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن : عبادة
الهوى واتباع خطوات الشياطين — هو السياسة .

لم أر كإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله
سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعدده

وخفى على الفافلين قصده ، وإن وضع للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خسارة ^(١) من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه فى شىء إلا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم ، وأفن رأى من صحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سبباً فيما صار إليه أهله : كان الإسلام ديناً عربياً ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له ، ظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق بيت النبى صلى الله عليه وسلم . فأراد أن يتخذله جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبد بها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج

(١) الخسارة بالمعجمتين كالحثالة وزناً ومعنى : الردىء وما لا خير فيه من كل شىء ، من خسارة الشعير وهى مالا لب له ، وخسارة التمر وهى رديءه والشيخ منه ، وحثالة الطعام ماسقط منه إذا تقى .

عليه ، ولا تمين طالب مكانه من الملك ، وفي سعة أحكام
الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنا لك استعجم الإسلام
وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه وخلفه ، وبئس ما صنع
بأمته ودينه ^(١) أكثر من ذلك الجند الأجنبي ، وأقام عليه
الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أوضاعها حتى تغاب رؤساء
الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة
في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام
والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة
الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم
ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه
يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا
على الاسلام آخرون ، كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره :
أي عدوٍ لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم

(١) هو المعتصم ، بئس ما صنع في نصر البدعة على السنة ، وبئس ما صنع
في تمكين الترك من سلب ملك الأمة .

ويكشف لهم قبح سيرهم ، فقالوا على العلم وصديقه الاسلام
ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ،
وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء ، وأن
يتسربلوا بسرايلهم ، ليعدوا من قبيلهم ، ثم يضعوا للعامة في
الدين ما يفيض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا
عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين
ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعلوه ، أو متداعياً ليدعموه ،
أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من نفخة الوثنية ، وفي عادات
من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك
للالاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن
في ذلك تعظيم شعائره ، وتقدير أوامره ، والغوغاء عون العاشم
وهم يد الظالم . فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات
وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق
الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس
له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى

يقف الفكر ، وتحمّد العقول ، ثم بشوا أعوانهم في أطراف
 الممالك الاسلامية ، ينشرون من القصص والأخبار والآراء
 مايقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة ، وأن كل
 ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على
 الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من
 غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال
 واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق
 لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة في
 إصلاح حال ولا مال ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ،
 وماعلى المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا في ظواهر
 لألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات
 والضعاف ما شد أزركم في بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضالمين ،
 يتعاون ولاية الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف ، واتخذوا
 من عقيدة القدر مشبطاً للعزائم ، وغلاً للأيدي عن العمل .
 والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما

هو السذاجة ، وضعف البصيرة في الدين ، وموافقة الهوى —
أمور إذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ،
ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم
ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة — سياسة الظامة وأهل الأثرة — هي التي
روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا
كان يخرق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى يأس يحاور به
العجاوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاماً فهو ليس
بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم
والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل
الناس بما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلى الجود الذي
ذكرته وعدوه ديناً ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله
وعلى دينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام ،
وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً ، والقرآن شاهد صادق
(لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد) يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعمما جاء به

معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفسد هذا الجود ، وثبت
أنه علة لا بد أن تزول .

مفسر هذا الجود ونتائج

طال أمد هذا الجود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة
عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفسد
يطول بيانها ، وإنما يحسن إجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعتل فى سعة العلم ، ويسيح
به فى الأرض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من
آثار الله ، أو يكشف به سر آمن أسرارده فى خليقته ، أو يستنبط
حكما من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول
تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما
وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ،
ولم يكن ذلك دفعة واحدة ، ولكنه سار سير التدرىج .

جناية الجود على اللغة

أول جناية لهذا الجود كانت على اللغة العربية وأساليبها

وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها حاجة دينهم إليها - أريد حاجتهم في فهم كتابهم - إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إليه هيئة تراكيبها . وكانوا يجدون أنهم لن يبالغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم ، يساوون من كانوا عرباً بسلاقتهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه ، بأن كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا ، وأرغموا عقولهم على الوقفة ، فيضييه الشلل من تلك الناحية . فأى حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ؟ وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون في كلامهم وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه ، هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول

من أحوال الزمان، فهو لا ينظر إلا إلى اللفظ وما يعطيه، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها، حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة، وإن لم يصلوا منها إلى غاية في فهم ما وراءها، فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم، بل فقدت كتب السلف الأولين رضى الله عنهم، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشافعي رحمه الله تعالى، أو بعض كتب الأمهات في فقه الحنفية، كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءاً من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر، فإذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض لها من مسخ النساخ حائلاً بينك وبين الاستفادة منها.

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله، وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين، ليرفع بذلك منازل المتقدمين، وعدم الاعتبار بما ورد في الأخبار من أن المبلغ ربما.

كان أوعى من السامع^(١) وأن هذه الأمة كالطر، لا يدري أوله
خير أو آخره^(٢) وقلة الالتفات إلى ذلك قد أضاعت آثار المتقدمين
أنفسهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. لا ريب أن القارىء يحيط
بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة، يكفيه من ذلك أنه إذا
تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول،
وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول؟

جناية الجُمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة
وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب
والشيوع في الدين. كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع إلى
اختلاف أفهام الأفراد، وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون
فيه، وهو كتاب الله وما صح من السنة، فلا مذهب

(١) يشير إلى حديث ابن مسعود عند الترمذى وابن ماجه وهو
سمعت رسول الله (ص) يقول: «نضر الله امرأ سمع منى شيئاً فبلغه
كما سمعه، قرب مبلغ أوعى له من سامع» ورواه غيرهما عن غيره.
(٢) يشير إلى حديث أنس عند الترمذى وهو، قال رسول الله
ﷺ «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره» ورواه غيره.

ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب إمام آخر ، وإذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتصق » لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكننا اليوم في شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه . يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمى بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدي إلى الجحود .

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه ، مسجدهم واحد وإمامهم

واحد وخطيبهم واحد، فلما جاء دور الجمود - دور السياسة - أخذ المتخالفون في التنطع وأخذت الصلات تتقطع، وامتازت فرق وتألقت شيع، كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين، وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً، فما استطاعوا وإنما هو تمييز وهمي، وخلف في أكثر المسائل لفظي. وإنما هي الشهوات وضروب السياسات. أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع، حتى آل الأمر إلى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها.

قال قائل^(١) من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة، لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال : إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعاً

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمي في تقريره الذي وضعه لأصلاح المحاكم الشرعية وبيننا مكاتته وأدلته في مقدمة ذلك التقرير .

للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون
 حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين ، مع أنه
 لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه
 العمل في أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء :
 « وكلهم من رسول الله ملتصق » ؟ لكن هو جمود المتأخر
 على رأى من سبقه مباشرة ، وقصر نظره عليه دون التطلع إلى
 ما وراءه . أوهى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح
 ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون إليها بأزمة القوة
 أو الأهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود في أحكام الشريعة جر إلى عسر حمل الناس
 على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً
 سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى
 يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم
 فيها لا يرتقى إليها ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً
عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا
قليلاً لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من
جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ، فوقع أغلب العامة في مخالفة
شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون
أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق
الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوماً أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع
وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك ؟
فأجاب : إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل
وإنما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجهود بأهله ، ولو أرادوا
أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم
وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف
عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن
لوجدته أحداً صرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط

القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام، وليس المستول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله، لا اعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة، فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها. وذلك للخرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم. فإذا قلت للعارف تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك، واعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك، فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلاً وإن لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه، قال: سبحان الله! هل فعل ذلك أحد من المشايخ؟ يريد أن لا يأتي شيئاً إلا إذا أتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالنوا فيه حتى

خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه ^(١) ثم إذا حاجبته في ذلك لم يعد من رأيه أن يعدك زنديقاً ، وأنتك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهاى للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة ، وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصاً عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد . فقال لى : إنه لا فائدة في ذلك قطعاً ، وهو تعب في غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وليس عليك أن يأتى المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته ، كما يزعم ، ولم ينظر في الوسيلة إلى اقتلاع

(١) تراهم يقولون في الكلام على آية أو حديث أنه حجة على أصحابنا ، وتجد مثل هذا في مواضع من شرح النووي على صحيح مسلم وهو الذى لقبه الشافعية بالشافعى الثانى .

هذا الفساد ، مع أن الدين يدعو إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلاً لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ، ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الإلهية التي وردت في النصيحة والتأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن اليأس من روح الله إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا ، بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو إن هذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئه . وغيره أفضل منه . كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعودوا نوعاً من الإخلال بالدين . وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل الله .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريراً للمسائل وإملاء للحقائق على الطلاب ، ولو لم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدي الطلبة إلا

الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعون من أفواه أساتذتهم ،
قد يعترف لك بصحة ما تقول ، ولكنه يستمر في عمله . اعتماداً
على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن
هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى إدراك في سوء
عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم في العمل . وأشدّ ضرراً منه الجمود في
العقيدة : نسوا ما جاء في الكتاب وأيدته السنة من أن الإيمان
يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن . وأن العقل هو
ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة
وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك ^(١) من علم الغيب كأحوال
الآخرة وفروض العبادات وهياتها ، وأن العقل إن لم يستقل

(١) يعني أن الأخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل — وفاقاً
لنظر العقل — على التصديق بأن الله أرسلهم ، فهو لا يكون إلا بعده
وهذا قطعي بالنسبة إلى من يدعى إلى الدين من الكفار وإلى إقامه
الحجة على المنكر ، وأما الناشئ ، في الإسلام فلا ترتيب عنده في ذلك
فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة .

وحدد في إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لأحالة في
 الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه
 بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا لا بد من اتباع مذهب خاص
 في العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم
 الالتزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم
 إلى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد
 فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول ، وكأنهم لذلك
 جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد ، وباليته النقل عن المعصوم ، بل
 النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : إن عقيدة
 كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ،
 ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن
 يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة
 ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أميهم
 فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وإن لم
 يكن في حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب
 تناقض مسموعاتهم .

أنجر التساهل في الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه
لنا السلف رضى الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات من
ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من
أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من
المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ ممن عرفه
وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع
بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث . ما ترتفع
الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما ترامى البدع
المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رذاعة التقليد ،
والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق
فى معرفته حاله ، وإهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو
إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك
عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم
إلى عناء طويل وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب ، وسلاح
أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف ويمن لا يعرف .

وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غداً
إن شاء الله .

سأل سائل من الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل
من الأعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة . ومنزلة الشيخ من
الرياسة في أهل العلم بالدين منزلة — فأفتى بما ينطبق على السنة
وما يعرفه العارفون بالدين وقال : إن العمل بدعة من البدع
يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى
الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسأل ، ودخلت
السياسة ، ثم قيل : إن الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر
كذلك من قبلنا ، وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن
يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ، ووكلت إلى أناس منها لا علم
لهم بالدين ولا بالأدب . وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر
الغرس ، ولا تنجى الأئمة منه إلا أخبث الثمر . فلو قام العلماء
بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصريح به في كتابه وسنة
نبيه ﷺ المجمع عليه عند السلف قاطبة لا تنصب له ناعر من

العامّة^(١) يصيح في وجهه (ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين)
ويريد من آباءه الأولين : من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له
أسمائهم بلسان مضليه حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب
الأمور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل
العبادة أقبح المنكرات في الدين . وإذا دعى إلى ترك المنكر
نفر وزجر وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن
يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم
النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون
هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين ديناً ، ويصعب
على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جهودهم على ما ورثوا من
ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تخلص من أيدي مندرية
ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على
حملة الشريعة ، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه صلى الله

(١) من نعت الدابة تنعرب به بضم العين نعيراً صوتت

عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

نم إن الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما في مدارس الحكومات الإسلامية ، وإما في المدارس الأجنبية . داخل بلادهم أو خارجاً عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فإنني لا أعرف كثيراً من أحوالهم ، ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً ، وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الأوربية ، ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً . وهم اشد تمسكاً بلب الدين الإسلامي وروحه من كثير ممن يدعى الورع والتقوى ، ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم . فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وإنما اتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في مصر
وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الإسلام وسعة
حلمه للعلم أباحت للمسلمين ان يرسلوا اولادهم ليأخذوا العلم في
المدارس الرسمية وغير الرسمية من اساتذة فيهم المسلم وغير
المسلم ، او عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل في مدارس لم تبز
إلا لترويج دين غير الدين الإسلامى ، وأباحت لغير آباء هؤلاء
التلامذة ان يسكتوا وان لا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت
العقيدة سالمة من الهدم او الضعضة .

جهود تلامذة المدارس الأجنبية

هؤلاء التلامذة إن كانوا في مدارس اجنبية لا أثر لتعليم
الدين الإسلامى فيها . بل ربما يعلم فيها دين آخر ، فقد يسرى
إلى عقائدهم شىء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرّة
وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مراراً ،
ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم
ل دعموا من عقائد أبنائهم ، وحفظوها من التزلزل أو الزوال ،
وكيف يكون لأولئك الآباء شىء من هذا العلم مع الجهود على

طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلاً عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم . ولكن الجهود صير كل شيء صعباً ، وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنایات الجهود على أبناء المسلمين الذين يتعاملون في مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويأليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة ، كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع . اللهم إلا زاجراً عن خير أو دافعاً إلى شر ، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير بما يتعلم هؤلاء بدون رية ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضار من التعليم والتعلم .

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية . فهو لاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة ، وتقرر لهم حقائق في الكون السماوي أو الأرضي . أو في الاجتماع الانساني ، ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه . وقد يسمعه مبتطع ممن يلبس لباس أهل الدين . وهو جامد على ألفاظ سمعها ، فلو سمع غيرها أنكره وضمنه مخالفاً للعقيدة الصحيحة . فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه . ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه تفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وعلى خصمك ، حار لا يدري إلى أي كتاب يرجع ؟ ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القوم على مافيها من تشبث وتعقيد ، وأبقوها كما ورثوها . فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم ، بل

قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً .
 ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آداباً في غير
 وقما يجدونها ، فترهم وقد فترت قلوبهم وفصرت همهم .
 فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ،
 ويسلكون إلى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة
 « مادام الشرف محفوظاً » فإذا وجد بينهم من يدعى الوطنية
 أو الغيرة المالية أو نحو ذلك . فإنما ينثر الألفاظ ثراً لا يرجع فيها
 إلى أصل ثابت . ولا إلى علم صحيح . ولهذا يطلب المصلحة
 لبلاده من الوجه الذى يؤدى إلى المفسدة ، وهو يشعر —
 أو لا يشعر — على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين
 ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه . أو درس عقيدة من
 عقائده . فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون . ولولا هذا
 الجحود لو جدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به
 قلوبهم . وتطمئن إليه نفوسهم ، ولذا قوا طعم العلم مادوماً بالدين
 وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولو وجدت منهم طبقة معروفة
 يرجع إليها فى سيرة الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

المقال الخامس لذلك الامام الحكيم

وفيه بيان علاج الداء

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله إن شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي - بعد عرصتها عليك فيما سبق - أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث - مرض الجمود على الموجود - . وكيم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أحمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة إلى إعادة ذلك .

ثم إننا أشرنا أيضا إلى بعض الأسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام . وإن محدثها إما عدو المسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم الخاصة نفسه وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً . وهذا

الثاني كان أشد نكايه وأعون على الغواية ، وهل نزول هذه العلة ويرجع الاسلام إلى سعيه الأولى وكرمه الفياض وينهض يأهله إلى مآذخر لهم فيه ؟

جاء في الكتاب المبين (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم - هو القرآن الذي (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ، لا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفتي المصاحف طاهراً تقيًّا ، بريئاً من الاختلاف والاضطراب وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب . وسئمت النفوس من التخبیط في الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره ، فيتبجج ضياؤه لأعين أوليائه . إن شاء الله تعالى .

هذه الضياء كان ولا يزال يابوح لأممه في حنادس الظلم
لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فينتدون به إليه ويحمدون
سراهم . بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت
عليهم ظلم البدع واران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب
للشييع . وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من
الباطيل . وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى
عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقير .
يصيحون بأنهم عمى صم . فلا يرون له سناء . ولا يسمعون له
نداء . ويعدون ذلك من كمال الايمان به . ولبئس ما رصبوا
لأنفسهم من السفه وطول الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون .
ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه . ويقولون
حجج أعدائه في حربهم بزعيمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه
في شيء كما قدمنا .

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم . فقد اتبعوا
سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع . وضيقوا على أنفسهم بدخولهم

في حجر الضب الذي دخلوه ^(١) ومن اتبع سنن قوم استحق
الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم . ولن يخلص مما قضى الله
في عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين . وبين لهم ما أنزل
بهم عندما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه . ونبذوا كتابه
وراءهم ظهريا — أحل بهم الذل . وضرب عليهم المسكنة .
وأورث غيرهم أرضهم وديارهم . فهل ينتظر المتعنون سننهم .
الساؤون على أثرهم . أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم
وقد قضى بأن تلك سنته وإن تجد لسنة تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الاسلام
ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا وقد بدءوا يفيقون
من سكرتهم ويفزعوا إلى طلب النجاة ، ويفسألوا قذى
المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب
الكريم في انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم في
سبيله بروح القدس ، ويسير بهم إلى منابع العلم ، فيعترفون

(١) في الكلام إشارة إلى حديث « لتبعن سنن من قبلكم شبرا
بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه
الشيخان وغيرها .

منها ما يشاءون ، فيصرفون أنفسهم ، ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : إن الإسلام لن يقف عشرة في سبيل المدينة أبداً ، لكنه سيهذبا وينقيها من أوضارها ، وستكون المدينة من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجهد سيزول ، وأقوى دليل لك علي زواله ، بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون إليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الأول في قلوب المسلمين ويأوى إليها — العلم يتبعه وهو خليه الذي لا يأنس إلا إليه ، ولا يعتمد إلا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض

أعداء القرآن : إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة
أوشكت أن تقوم ، وإن ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما
منى به الدين من الكساد ، وما عرض له من العلل وما نراه
فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهزم : فلافائدة في
السعي ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة إلا إلى العدم ، ولا يصح أن
يتمد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننظر من غاية لأعمالنا سوى
العدم (نعوذ بالله) .

هولاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون عما
لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع
عند نهايته ؟ إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أي
الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً ، وإنما هي يوم أو
بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وإن آيات الله في الكون -
وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور
الدهارير - تشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن
تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة، فهل يعد مثل ذلك دهرًا طويلاً بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام؟ إن زعمنا كذا لا يكفي — وقد تبين أنه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه. ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم؟

وقد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله، فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً، ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به إلى ما يرون ونرى. ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد. ويأخذ الدين بيد العلم. ويتعاوننا معاً على تقويم العقل والوجدان. فيدرك العقل مبلغ قوته. ويعرف حدود سلطته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ويكشف ما يمكنه فيه من أسرار العالمين. حتى إذا غشيت سبحات الجلال وقف خاشعاً. وفقل راجعاً، وأخذ إخبذ الراسخين في العلم. الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه: «هم الذين أغناهم عن

اقتحام السدد المضروبة دون العيوب . الإقرار بجملة ما جهلوا
تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالمعجز عن
تناول ما لم يحيطوا به علماً . وسمى تركهم التعمق فيما لم يكافهم
البحث « غن كنهه رسوخاً » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقصر
على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون
من الهالكين . هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك
منقطع^(١) قدرته . وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس
أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته . وتولت^(٢) القلوب
إليه لتجرب في كيفية صفاته . وغمضت مداخل العقول في
حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته . ردعها وهي تحوب
مهاوى سد^(٣) الغيوب ، متخلصة إليه سبحانه ، فرجعت
إذ جبهت^(٤) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره .

(٢) تولت اشتد عشقها .

(٣) السد : جمع سدفة كظلمة لفظاً ومعنى .

(٤) جبهه : ضرب جبهته ورده .

ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته»^(١)
 هنالك يلتقي (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب)
 ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته
 متى كان الوجدان سليماً ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين
 صحيحاً ، إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن ورقابين
 العقل والوجدان (القلب) في الواجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة
 فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض
 الروحية على النفوس ، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات
 المحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادئ البرهان
 العقلي ، كوجدانك أنك موجود ، ووجدانك لسرورك
 وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر في الغايات والأسباب والمسببات ،
 والفرق بين البسائط والمركبات — والوجدان لإدراك ما يحدث
 في النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس

(١) هذا الكلام فيه من الصنعة وسهات التوليد ما يدل على أنه

موضوع على علي كرم الله وجهه .

وإذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يحصيه البيان . فهما
 عيان للنفس تنظر بهما . عين تقع على القريب ، وأخرى تمتد
 إلى البعيد . وهى فى حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحدهما حتى
 يتم لها الانتفاع بالأخرى . فالعلم الصحيح مقوم الوجدان .
 والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم
 وذوق ، عقل وقلب . برهان وإذعان . فكر ووجدان . فإذا
 اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائميه .
 وهيهات أن يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان
 حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين . والوجود الفرد وجودين
 قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعاً
 لو جدانك . وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه إجابة
 لدافع من سريرتك . فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل
 والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه
 ولا غيره . عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد
 الأمرين — إما أن يبينك ليس يقين . وأنه صورة عرضت
 عليك من قول غيرك . فأنت تظنها علماً وما هي به . وإما أن

وبعد انك وهم تتمكن فيك : وعادة رسخت في مكان القوة منك
وليس بالوجدان الصحيح . وإنما هو عادة ورثتها عن حولك
وظننتها شعوراً منبعه الفريضة وما هي منه في شيء .

لا بد أن ينتهي أمر العالم إلى تأخى العلم والدين على سنة
القرآن والذكر الحكيم . ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى
صح معناه ^(١) « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله »

(١) قال العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء : رواه أبو نعيم فى
الحلية سرفوعاً بأسناد ضعيف . ورواه الأصبهاني فى الترغيب والترهيب
من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى
الشعب من حديث ابن عمر ، وقال : هذا إسناد فيه نظر . قلت : فيه
الوازع بن نافع مزوك . وقال الزبيدى فى شرح الأحياء : قلت حديث
ابن عمر لفظه « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه
ابن أبي الدنيا فى كتاب التفكير وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى فى
الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه ، والأصبهاني ،
وأبو نصر فى الإبانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن
عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرُونَ
قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبي هريرة « تفكروا
فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها
يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد الحسنة .

وعند ذلك يكون الله قد آتم نوره ولو كره الكافرون^(١)
وتبعهم الحامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به
إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ،
وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية
في التدرج (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله
تبديلاً) (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) (ان تنصروا الله ينصركم
ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين .

(١) الكافرون من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظره
فيعرف الحق ثم يهتري فيه وينكره عنادا : اه من هامش الأصل .

هبة العلم في أوروبا الآن

ونسبته إلى الماضي والحاضر في الإسلام

وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة^(١) وهو « أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوروبا وعدم تمكنها من التغلب على الاضطهاد الإسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة » .

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول — وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية — وإنما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ، ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

(١) يذكر القراء أن كلام الجامعة في الطعن بالإسلام كان مبنيّاً على أربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفي هذا المقال الرد على الرابع

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحاً؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حاملاً؟ أم يسمى غل الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرماء؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين: كرسي المملكة الإيطالية وكرسي المملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحاً من الملك مع البابا. لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة. ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التي عليها أهل أوروبا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين — تساهلاً من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم، بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها.

اقتباس مدنية أوروبا من الاسلام

وأسباب ظهورها العام

لسبب الأول الجمعيات

كان جلاء بين العلم والدين في أوروبا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجاباً له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة ، وكان الدين يظفر بالعلم كما يسبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما إلى المدنية التي كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم ، واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الإنساني يتلمس السبيل إلى الخلاص

وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه
وكان بعد ذلك ما كان من تأثير الدين لأهل العلم وإحراقهم
بالنيران . ونفيهم من الأوطان . ومقاومة رؤساء الدين
للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة ، في أدنى الأشياء وأعلاها
حتى انه عندما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس
بالبلاط على الأسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة ، وصدر
الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع ، أغضب ذلك
قسوس القديس أنطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لا بد أن
تمر في الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم
اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع
في أعناقها أجراس . وقالوا إن الملك فيليب السمين مات بسقطة
عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة
الجرس في عنقه .

لقائل أن يقول : إن القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم
أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك
بعد تسامحاً عظيماً مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين ، إلا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدينة التي يفتخر بها الأوريون اليوم ، ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثاني : الضغط الديني

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم . فلم تفتقر لهم هممة ، فعظم أحرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التي نفعت العامة ونهت العقول للأخذ بما يتدون إليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم وكان منهم (إيراسم) الشهير ، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم . فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية ، وترك المصلحين

يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الإصلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الإصلاح لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم « وكما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم في العمل لإفناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضارها في كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ، ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أي طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي : نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث : الثورة

ولاحاجة بي إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وإنما أنبه القارىء إلى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه في كتب القوم . ليعلم أن الدين المسيحي في أوروبا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً ، وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً ، ولو شاء أن لا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيره على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان ، وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزد هم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه ، ولم تقتر لهم

همة في نشره وتربيته للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامّة من الشعوب في تحاذل عنه . والأمة الفرنسية — التي كانت تدعى بنت الكنيسة — أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : ومدارس اللاهوت لا تزال عاصمة وطلاب اللاهوت يعدون بالآلاف ، كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت — في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له في أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت قائمتها الاجتماعية — مانحه مترجماً : إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكشكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني) أو الكشكة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً .

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فإن وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف — إن شاء الله — بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والإسلام .

عود الى ساحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به إلى ماضى من الزمان وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم — والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده ، يصفح الفقيه المتكلم والمحدث الطيب ، والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به — وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحدثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدي

عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث ، وعمر بن عبيد
رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من
التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد
سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربه ، ان
قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان
أزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، مارأيت
ظاهراً أشبه بإطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصري فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن
علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول
العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب
الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة ، وهما
من أهل بيت واحد — أمرٌ به بين تلك الصفوف التي كانت
تختلف وجهتها في الطالب وغايتها واحدة وهي العلم ، وعقيدة
كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما
ورد في بعض الأحاديث ^(١)

(١) رواه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن أبي هريرة بسند

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين في قوته ، والعقيدة في أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ، ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهناك يشير القارىء المنصف إلى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : وهنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته ، وهنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، وهنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء أنه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما

== ضعيف ، ورواه من طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس (خير من قيام ليلة) ، ولشبهة هذا المعنى قال الغزالي : وردت السنة بكذا .

كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء ، شأن الأحرار في الأفكار الذين أطلقوا من غل الثقيبه وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللز والتمناز بالألقاب ، فلا يقول أحدهم لآخر : إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى ، إلا إذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الإخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم ، فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين

وعدوى التعصب في المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورمى زيد بأنه مبتدع وعمره بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله — تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين

أركانها — وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم يمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسامون يظنون أن من البدع في الدين ما يحسن إحداثة لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها ، وأنشأوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعاملين وتولى شؤون المسامين جهالهم ، وقام بإرشادهم في الأغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكما ازدادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلوّاً فيه بالباطل ، ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أخطئ القارئ إذا زعم أن المسلم انما يستفاد اسم زندقة وثرندق وثرندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه إذ كانوا يقولون : هر تقة وهر ترق وهو هرتوقى ، أو ما يماثل ذلك — أو زعم أن قد فشت في المسامين سرعة التكفير بطريق

المدوى من أهل الملل المتشعبة . وإن الذي سهل سريان المدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجھلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين ، أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الإمام الغزالي إلى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيره وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « أحياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالسنة وأشدّهم غيرة على الدين — : إنه ضال

مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه
الشتائم ، وعليهم إثمها وإثم من يقفون بها إلى يوم القيامة .

إهمال آثار السلف

وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم .
حتى إنك لا تجد اليوم في أيديهم كتاباً من كتب أبي الحسين
الأشعري ولا أبي منصور الماتريدي ، ولا تكاد ترى مؤلفاً
من مؤلفات أبي بكر الباقلاني ، أو أبي إسحاق الإسفرايني ،
وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المساميين أعياء
البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من
الهجرة وما بعده إلى السادس . منها تفسير الطبري وتفسير
أبي مسلم الأصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير
الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها ^(١) وفيها من

(١) قد طبع بعد وفاة الأستاذ رحمه الله تفسير الجصاص الحنفى =

آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها على دين ، وأن لها فيه سلفاً ، أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث و فراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان ؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرؤون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب نال الله ، أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، يأخذ فيها بالتسليم . فإذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع

== وابن العربي المالكي وكلاهما خاص بأحكام القرآن الفقهية ومن أنفس ما ألف فيها أنصار المذاهب وتفسير الطبري خير منها كما أن كتب ابن تيمية في العقائد خير من كتب أولئك المنظار كلهم .

الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقاً عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول ^(١)

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقلَّ جداً في المغرب الأقصى ، ولم يبق الاهتمام به إلا في بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم — وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوروبا أو في المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء ، وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليماً دينياً ينظر إليه — وإما للفتور والجمود ، الذي نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم

(١) بل هذه الكتب الكلامية لا يوجد فيها بيان مذهب السلف الذي أثبتته المحدثون بالروايات الصحيحة وما ينقل فيها عن تفويض السلف في الصفات والمتشابهات غير سديد .

الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت
الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور
الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه
واستغربوه وعدوه بدعة في الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام
في بعض أشعاره الفارسية مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام
« إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزر كشوه
حتى لو رأيته أنت لأنكرته » .

فهذا الصنف من المسلمين - وهو معظمهم - قد أنكر
دينه الحق وعاداه ، وتقم على أهله القاعين بخدمته ، وإنما اصطفى
لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ،
ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فإذا وقع من هذا
الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعاً من دين
الإسلام - دين محمد صلى الله عليه وسلم - دين القرآن - دين
السنة الثابتة - دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف
الأولين ؟

متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه

الحق أقول - والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم
 عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن
 علمه ، فكلماء بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا
 ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في
 العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما غيرهم
 فكلماء اتصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم
 وتجهّمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلماء بعدوا من الدين سالمهم
 العلم وبشّ في وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار
 العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن
 يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة
 بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل
 والدين ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه
 تسامحاً مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل أن
 يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم : أقول
« اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد
في إبادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ،
والتفنن في صنع آلات الهلاك مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء
في الإعدام بمجرد التهمة ، فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام
علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد
الاعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ،
وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه
الأديب اضطهاداً - إنما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي
ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردهم إلى العلم بدينهم
والتبصر فيه ، للوقوف على أسرارهِ والوصول إلى حقيقة
ما يدعوا إليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم .
فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة .

الدعاة في الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوروبا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي^(١) إلى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك؟ لا . إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم — فما يزيد — في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلام ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهفته لفارقة ما كان عليه واتباعهم ، حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفئ النور ، ويدلهم الديجور .

(١) كذا في الأصل المطبوع على عهد المؤلف ، ولعله القرن

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب
السياسة اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن
أن يظن ذلك ، وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن
أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين في
نظر المنصف .

المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : إن كان المسامون قد أخذوا الجمود في
التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة
وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن
الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل إليهم . فما بالهم لم
يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم ، والتوسع في
علومه مديلاً بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما
قسم المسيحيون إخوانهم قسمين : قسمًا ينقطع إلى الآخرة في
الأديار والصوامع ، وقسمًا يشتغل بالدنيا ليقبض نفسه
ويقبت أهل القسم الأول ، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟
وما لك ترى المسامين خملوا وارتخت أعصابهم وشموا النظر في

علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطريق لتحصيل الفنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر . كما يقولون .
يجرى بهم إلى حيث لا يعلمون ، ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدّهم لهفًا على الحطام . فلا ترى الجمهور منهم فى شيء للدين ولا للدنيا ، فما هذا التناقض ؟

فأقول له : إنك قد نسيت أن المقلّد يكون دائماً أخطأ حالاً وأخس منزلة من المقلّد . فالمقلّد إنما ينظر من عمل المقلّد إلى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة . ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لاسيما إنهم قد خلطوا فى التقليد ، وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آثماً ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى إلى أن يستريح ، فينهض إلى العمل على هدى أو يعوب لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى

الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أنعمضوا
إحدى العينين ، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبى عنهم ، ففقدوا
المطلبين ، ولن يجدوها إلا بفتح ما أنعمضوا ، وتطهير ما أقذوا

الإصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل
بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسورية
وغيرهما من البلاد في هذه الأيام ؟ كل يقول : دينى ملئ ،
إسلام مسامون ، قرآن سنة ، مجد الإسلام القديم ، سلفه
الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة ، كتب جديدة ،
وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنهين
إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامى كثيرون ، ولا نرى مع
ذلك من أغلب المسلمين إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً ، وصدأً
عما يدعوا إليه هؤلاء ؟

ويمكننى أن أقول له : إن الصادق من هؤلاء ليس بكثير
عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم إلا

متجربين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء ، وقما يدرسون شيئاً من مدلولاتها ليتفوا على الحقيقة منه ، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر ، كالزبد لا يكت في الأرض ، وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصاً في أمر الدين ، واجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا . ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب ، فانتظر ^(١) .

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا

(١) قد كثر بعد كتابة الإمام هذا تأثير دعوة الإصلاح في القطر المصري وغيره يندس الخرافات والرجوع إلى مذهب السلف حتى في الأزهر ، رغم أنوف بعض أكابر شيوخه ولكن لما ينظم عقد المصلحين فيكونوا أولى قوة يغلبون بها المفاسد الخرافية والاباحية ، وقد أجاب الإمام عن السؤال الذي أورده عن سبب هذا بما ترى .

العاديين منهم إليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقعة التي طال أمدتها عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهيمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلاً لمواخضة الإسلام وحجة عليه ؟

وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العامة ، إلى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة فلم يمض عليهم وهم في بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذي قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها في آخره . وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز في شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو في التعصب الديني فضلاً عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطاً فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره في مثل المستعمرات الهولندية في الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال في الجنوب ثم يرجع إلى بعض بلاد روسيا في الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها في جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر إليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون

لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين، ولكن
حكومتهم لا تجد السبيل إليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو
الشدة والإفراط في القسوة على المسلمين خاصة وخدم دون
سواهم، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة
على تلك القسوة، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه،
لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد، وهو محال
كما يقرره فلاسفتهم^(١).

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم فشرعت دولتهم في تنفيذه هو
إخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل
العلم والتعليم والإكراه والإجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم
الطبيعية والاجتماعية والقانونية ثلثا يطالبوا بالاستقلال الوطنى أو المالى
وقد أكرهوا سلطان المغرب الأقصى على توقيع ظهير (مرسوم)
ينحول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر،
فأنشأت لهم قانوناً بربرياً بعيداً عن الشريعة الإسلامية بعد الكفر عن
الإيمان فى الأحكام الزوجية والأرث وغير ذلك، ومدارس تعلمهم
بها دين النصرانية باللغة الفرنسية، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية،
وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الإسلامية، حتى إذا ماتم لها
إخراج البربر من الإسلام، وهم يزيدون على ثلثى السكان أكرهت
العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد، وأما إيطالية الكاثوليكية =

رأى هانوتو الأخير في معاملة المسلمين

موسيو هانوتو أطلق لقامه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين ، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون ، وجاء في فصول مقالته بما لا يزال يذكره القراء^(١) ثم بعد أن قتل المسألة علما ثلاث سنين ، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين ، رجع إلى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ، ورأى غير الذي كان يصدر عنه . وإني ذاكر ما خض ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه

== الموالاة للإسبانيا فهي تحاول استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم إيطاليين كاثوليكين بالقوة القاهرة تسكيلا وقتيلا ! (والله أشد بأسا وأشد تسكيلا)

(١) هو أنه طعن في بعض عقائد الإسلام فرد عليه الأستاذ الامام كاتب هذا ردًا دافع به بجهله بالأديان والتاريخ فزجعه عنه واعتذر

السنة (١٩٠٢ م) متعلقاً بأفريقيا ، واقتصر منه على ما يتعلق
بما نحن فيه ، وهو بالمعنى :

« إن القواعد الجديدة التي يجب أن يكون عليها العمل
في أفريقية هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت تجري عليها
السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أى قبل ساعة
وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة
التي يعامل بها المحكومون فقال : « إنها الأمن والسلم » ثم
قال « إننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما أننا مدينون لهم
بالتساهل الديني ، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي
له علاقة بكل ما يشير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول :
إن التمدن الأوروبي يجد في طريقه في أفريقيا لاسيما في شمالها
ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام ، والذي هو
في هذه الجهات (شمال أفريقية) أكثر نشاطاً منه في غيرها ،
وهذا الدين يدعو إلى إله واحد ، ويجعل الإيمان بالتوحيد
مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولي على
المؤمن استيلاء شديداً ، فلا يعود يقدر على التفريط منه . نحن

المفروض علينا التساهل في هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده ، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه . وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية (لا إكراه في الدين) شعاراً لا نخرج عن حدود معناها . وأن نحترم الدين الإسلامي ونحميه من كل طارئ سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : « إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات » اهـ .
محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارئ : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر — في نسبه إلى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة — في مذهبه ؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى .

ترى هانوتو يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين ، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم ، وتركهم يعملون

بدينهم وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجرى على مثله . وهل
يجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر ^(١) فهل يليق
بمنصف أن يذكر المسلم إذا ذكر التعصب مادام في الكون
مثل هذه الدرجة منه ؟

سياسة الانجليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوربية أمة تعرف كيف
تحكم من ليس على دينها ، وتعرف كيف تحترم عقائد من
تسوسهم وعوائدهم ، وهي الأمة الانجليزية ، فهي وحدها الأمة
المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن
نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد
جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المماليك وأمراء

(١) ذهب وقت النظر ، وأعقبه دور العمل ، وعلم أنها لم تجبه بل
أغرت رجال النصرانية ودعاتها بأقبح الطعن في الإسلام وشرعت هي
في محو من بلاد المغرب كلها وسيرد الله كبدتها في نحرها .

جيشه ، وقد امتاز الإنكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد
المسامين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم ، ولم
يحجبهم غشاوة التعصب عن إبعصار ضوء الحق ، وظهر أثر ذلك
في كثير من كتابهم مثل (ولتر سكوت) و (شيل) وغيرهما
قبل أن يظهر في أقلام الكتّاب من غير الإنكليز بأزمان
طويلة ، فلنا أن نقول ولا نخشع : لا محالة : إن هذه الخصلة الشريفة
خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه
مع احترام ما يحترمون -- هي من أجل الخصال التي ورثها غير
المسامين عن المسامين ، وهل أجدم من بآني على القول بأن
الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنكليز وعنه أخذوا
هذه الخلة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام
المسامين يوم كانوا مسامين : يكتفون من الناس بالخضوع
للقوانين ، وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون
نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة ، لا يفرقون بين

دين ودين^(١) ؟ وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أير وأرحم .

(١) نقول مع الأسف : إن الانكليز طفقوا يرجعون الفقهري في هذا الأمر وفي سائر المزايا التي فضلوا بها غيرهم من الأوروبيين . فقد منعوا المنابر من السودان منذ بضع سنين ، وهم الآن يصادرونه في بلاد أخرى ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .
(هذا ما علمته في حاشية الطبيعة الثالثة لهذا الكتاب سنة ١٣٤٩)
ومن الانصاف أن أقول إن حكومة السودان عادت إلى الانقياد بدخول المنابر في تلك البلاد . وقد منعت فرنسا من دخول المغرب في هذه العام (١٣٤٩) .

خاتمة

فإن قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل ، وترويج الكسل ؟ قلت : إني أوجه كلامي هذا إلى أهل النهم إلى الفهم ، وأرباب الشره إلى المعرفة ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال ، وأطول منه أضعافاً مضاعفة ، لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، وأما القارئ الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر إليه في الخطاب ، ولا يعتد به عند الحساب ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد ، وأنتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الإسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى .

وقبل أن أترك القارئ أنبهه إلى أن ما أجهل في هذه الفصول لم يقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف ، كما يعرفه القارئ نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب ، والتزود عن كلمة تشم منها رائحة

العيب على آخر ، وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأي طبخناه
 لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ،
 ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على
 غيرنا ، لكن إذا عشا السارى إلى ضوء نارنا ، وطلب القرى
 منا ، فاسمعناه مالدينا ، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة ،
 وأهنا من خلق الأناة ، إن شاء الله . اهـ .

تم الكتاب والمحمد لله

« تنبيه » قد رأينا أن نزيد في هذه الطبعة ما زدناه فيما
 قبلها من رد الأستاذ الإمام رحمه الله على مجلة الجامعة فيما كانت
 كتبت في فلسفة ابن رشد ونشر في المجلد الخامس من المنار
 مع مقدمة المنار له ، وهو ما تراه فيما يلي ، وهو أول ما كتبه
 الأستاذ من الرد .

الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد

قاضي القضاة في الأندلس (*)

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين ، وأكبر أساتذة أوروبا في العلم والفلسفة . لأن فلسفته انتقلت من الأندلس (إسبانية) إلى سائر بلاد أوربة ، فكانت مبدأ نهضة الأوربيين الحاضرة . ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة . وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب .

وقد نشرت مجلة الجامعة تاريخه وتكلمت عن فلسفته ، واستطردت إلى مسائل أخرى كذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الإسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل والإنسان دائماً عرضة للخطأ والغلط فيما تعامه وأتقنه . فكيف يكون حاله فيما لم يتعامه بالتلقي عن أهله إذا تكلم أو كتب فيه ؟ وإن صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو

(*) منقول من الجزء العاشر من مجلد المنار الخامس بقلم منشئه

فلسفة العقائد الإسلامية لأنه ليس مسلماً ، ولا فلسفة اليونانيين لأنها قد نسخت بالفلسفة العصرية ، فلا شك عندنا بأنه لم يستمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد إلى إنكار ارتباط الأسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساءوا الظن به ، واحتسوا عليه . ورغبوا إلينا في الرد عليه ، لأن من وظيفه المنار الدفاع عن العقائد الإسلامية وعن أئمة المسلمين .

وطالب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الأعلام ، الذين يرجع إليهم إذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام ، ولما رأينا ذلك الأستاذ وعد الطالبين بأن يكتب في بيان حقيقة تلك المسائل التي وقع فيها الخطأ أمسكنا نحن عن الكتابة ، لأنه هو الأجدر بالفصل بين الحق والباطل ، والذي إذا قال لم يترك مجالاً لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فنشر في هذا الجزء مقالته في فلسفة ابن رشد ، ومذهب المتكلمين ، وسنشر في الأجزاء التالية مقالاته في « الاضطهاد في النصرانية والإسلام » (*)

(*) هو الذي سميناه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »

تمهيد لمقالة الأستاذ الحكيم

لا بد لفهم قراء هذه المقالة من ذكر ما قالته الجامعة
في فلسفة ابن رشد لأن كاتب المقالة لم يذكر فيها إلا مواضع
النقد . قالت الجامعة :

المادة وفلوى العالم

« إن أعظم المسائل التى شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل
الكائنات ، وهو يرى فى ذلك رأى ارسطو فيقول : إن كل
فعل يفضى إلى خلق شيء إنما هو عبارة عن حركة ، والحركة
تقتضى شيئاً لتحركه ، ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق ، وهذا
الشيء هو فى رأيه المادة الأصلية التى صنعت الكائنات منها .
ولكن ما هى هذه المادة ؟ هى شيء قابل للتفعال ولا حد له
ولا اسم ولا وصف . بل هى ضرب من الافتراض لا بد منه
ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبدياً بسبب مادته ،
أى إنه لا يتلاشى أبداً ، لأن مادته لا تتلاشى أبداً وكل أمر

يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال ، وإلا حدث فراغ ووقوف . في الكون وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم ، بل لما حدث شيء قط . وبناء عليه فالعامل الأول الذي هو مصدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً ، والخالق تنزه عن أن يكون حديثاً .

اتصال الكون بالخالق

« هذا فيما يختص بخلق العالم ، وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى ، ولكن كيف يستولى العامل الأول على الكون ويدبره ؟ »

« لابن رشد في ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة ، فانه يشبه حكومة الكون — أى تدبيره — بحكومة المدينة ، فانه كما أن كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه إلى نقطة واحدة ، وهي نقطة الحاكم العام فيها . فيكون هذا

الخالق كمصدر لكل شئون الحكم، ولو لم تكن له يد في كل شأن من هذه الشئون - كذلك الخالق في الأكوان، فانه نقطة دائرتها، ومصدر القوات التي تدبرها، وإن لم يكن له دخل مباشر في كل جزء من هذه القوات، فبناء على ذلك لا يكون للكون (اتصال) بالخالق مباشرة، وإنما هذا الاتصال يكون للعقل الأول وحده. وهذا المثل الأول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للكواكب، وعلى ذلك فالسما في رأى فيلسوف قرطبة كون حي، بل أشرف الأحياء والكائنات، وهى مؤلفة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة. والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر، أما العقل الأول الذى منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر، ولكل دائرة منها عقل، أى قوة تعرف بها طريقها، كما أن للإنسان عقلاً يعرف به طريقه. وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض، والتي يلى بعضها بعضاً محكمة بعضها ببعض، إنما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الأولى في السماء

إلى أرضنا هذه ، وهى عالمة بنفسها و بما يجري فى الدوائر السفلى
البعيدة عنها . و بناء على ذلك يكون للعقل الأول الذى هو
مصدر كل هذه الحركات علم بكل ما يحدث فى العالم .

طريق الاتصال

« و إن قيل ما هى علاقة الانسان بالخالق ؟ فالجواب عن
ذلك يأخذه ابن رشد أيضاً عن أرسطو من الفصل الثالث من
كتابه (النفس) وخلاصة ذلك أن فى الكون عقلا فاعلا وعقلا
منفعلا ، فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الإنسان
وغير قابل للامتزاج بالمادة ، وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص
قابل للفناء والتلاشي ، مثل باقى قوى النفس . و إنما يقع العلم
والمعرفة باتحاد هذين العقليين .

« ذلك أن العقل المنفعل يميل دائماً للاتحاد بالعقل الفاعل كما
أن القوة تقتضى مادة تنفذ فيها . والمادة تقتضى شكلاً توضع به
وأول نتيجة محصل من هذا الاتحاد تدعى العقل الممكنسب ،
ولكن قد يتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً أشد من

هذا ، فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جـد الامتزاج بالعقل القديم الأزلي ، ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابي الذي تقدم ذكره . فإنما وظيفة العقل الاكتسابي إيصاله إلى حرم الخالق الأزلي ، دون أن يدغمه به ، وأما ادغامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم إلا بطريق (العلم)

فالعلم إذاً هو سبب (الاتصال) بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق ، ومتى اتصل الإنسان بالله صار مثله عارفاً بكل شيء في الكون ، ولم يعد يفوته شيء ، ولكن كيف يتصل الإنسان بالله ؟

« يتصل به بأن ينقطع إلى الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجب الأسرار التي تكتنف الكون ، فإنه متى خرق هذا الحجاب وقف على كنه الأمور ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة الأبدية .

أما المتصوفة فإنهم يقولون : إن هذا (الاتصال) يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد ، وليس العلم ضرورياً له .

« و بناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة

عن مذهب مادي ، قاعدته العلم ، والكون في رأيه - كما صر
 بك - إنما صنع بقوة مباديء قديمة مستقلة محكومة بعضها
 ببعض ، وكلها مرتبطة ارتباطاً مبهماً بقوة عليا ، ومن هذه
 المباديء شيء يستولى على العالم ويضع فيه العقل ، فهو عقل
 الانسانية وهذا الشيء الذي يسميه عقلاً أيضاً هو عقل ثابت
 لا يتغير ، أي أنه لا يتقدم ولا يتأخر ، لا يزيد ولا ينقص ،
 والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة ، علي
 أن من كان منهم أكثر استمداداً منه كان أقرب إلى
 الكمال والسعادة .

الخلود

ثم تكلمت الجامعة بعد ما تقدم عن رأى ابن رشد فى
خلود النفس، فقالت بعد كلام مانصه

« قال : إن العقل الفاعل العام الذى تقدم ذكره من صفاته
أنه مستقل ومنفصل عن المادة وغيرها ، غير قابل للفناء والملاشاة .
والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الإنسان ، وبناء
عليه يكون العقل العام الفاعل خالداً ، والعقل المنفعل فانياً
ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذى هو خالدى رأى ابن رشد ؟
إن هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية ، فالإنسانية
إذا هى خالدة وحدها دون سواها ، وبناء على ذلك لا يكون بعد
الموت حياة فردية ولا شىء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية » اهـ
كلام فرح افندى أنطون فى الجامعة .
وهاك رد الإمام عليه .

دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين

لأستاذ حكيم وفيلسوف عليم^(١)

فرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد، وصرحت على ما نقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق. لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل، ولم يكن لي قصد إلى النقد، وإنما أريد أن أستفيد جديداً، لهذا لم تقف نظري لأول وهلة إلا على ماحوته لك الجملة (الاضطهاد في النصرانية والإسلام) قرأتها بتروء، وانتهيت منها إلى حكم من الجامعة يخالف ما أعتقد. ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية. عند ذلك تحركت نفسي إلى كتابة سطور، أشير فيها إلى كشف مستور، أو إعادة ذكر مشهور، على أسمع الجمهور.

لاقاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر في نفسه أشد، ولسانه في العتب أحد، وذكر أشياء في غير هذا

(١) هو الامام الشيخ محمد عبده لم نضرح باسمه وقتئذ. ولكن عرفه كل من قرأ الرد وهذا المقال أول ما نشر منه في المنار.

الفصل من الترجمة ، ولفتنى إلى إعادة النظر فيها . رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان منى الكلام عليهما ، وبأن أحداث الجامعة فيهما .

لو كانت منزلة الجامعة من نفس منزلة غيرها من المجالات التى لا يعنى كاتبوها إلا ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملى ما يصرفنى عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجالات التى لو أهملت مباحثها من إنعام النظر ، وجعلتها فى جانب عما نستحقه من النقد لبخستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها .

لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت فى ذينك الموضعين وأبين حقيقة الأمر فى الثالث . أما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه فى خلق العالم واتصال الكون بالخالق ، وطريق اتصال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامى اليوم .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود

قالت الجامعة : « فلسفة المتكلمين هذه (أى فى وجود العالم) مبنية على أمرين : الأول حدوث المادة فى الكون ، أى وجودها بخلق خالق . والثانى وجود خالق مطلق التصرف فى الكون ، ومنفصل عنه ومدبر له . وبما أن الخالق مطلق التصرف فى كونه فلا نسأل إذاً عن السبب إذا حدث فى الكون شئ لأن الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه ، إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلاقات ، كأن ينتج بعضها عن بعض لأن هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفى الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن ، وذلك بقدره هذا الخالق » ثم ذكرت فى الجملة التى تلى ما تقدم أن هذه فوضى . وأن روحاً جديداً أخذ يدخل شيئاً من النظام فيها ^(١) .

(١) ذكرت الجامعة أن منبع هذا الروح النظامى فى مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذى يقتبسه من دروس الاستاذ الامام كبير رجال النهضة الاسلامية الحاضرة .

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخالق خالق، فإن الخلق في اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن مؤجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الألهي . فارسطو يقول : ان المادة قد استفادت وجودها من موجدها ، وهو الواجب . وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ما سيأتى بيانه ، وان كان لا أول لوجودها . وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة ، بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى إليها سلسلة من جانب الماضى ، ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية ، وقبل هذه البداية التى لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم إنه أراد إيجاد الكون فأوجده من عدم البحت هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضاً ، فلم يخالف فيه ملى من أهل الملل الثلاث .

أما كون هذا المذهب وحده هو الذى يصح اخذه من

القرآن ، أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأى آخر بل هو الذى يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن^(١) فان كلامنا فى تصوير مذهب المتكلمين .

الأصل الثانى - وهو وجود خالق مطلق التصرف - لازم للأصل الأول ، لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فهو بوجده هو خالقه وهو مطلق التصرف بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذى يخلق ، والمتكلمون ، وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار ، انقسموا إلى فريقين عظيمين ، فالقدريّة منهم - ويسمون بالمعتزلة أيضاً - قالوا : إن الخالق وضع للكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين ، وأودع فى المخلوقين قوى أو قدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار . فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة فى قولهم ب لزوم الآثار لمصادرهما ، أو تأثير قدر المخلوقين فى أفعالهم . وقد بقى من أهل هذا المذهب إلى اليوم

(١) وقد اشار إليه فى الكلام على طبيعة الاسلام فى التمهيد للأصل الأول من أصوله (ص ٥٥) .

طائفة الشيعة الإمامية والزيدية فإنهم لا يخالفون المعتزلة في هذه الأصول ، فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشرة — وإن كانت جميع الأسباب تنتهي إلى مصدرها الأول وهو الخالق — كما يسأل الفيلسوف بلافرق والفريق الآخر الذي عنته الجامعة ، وهو الذي يرى اسناد الآثار إلى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها ، بل قال : إن الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب ، فلا يقال : إن الأكل — مثلاً — هو الذي يحدث الشبع ، بل الشبع شيء يحدثه الله عند الأكل ولكنه لا يحدثه عند الخوى ، إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه . وحمل هذا الفريق على القول بانكار نسبة اليجاد ومنح الوجود إلى شيء سوى واجب الوجود . وقالوا في الأفعال الاختيارية : إن الله يوجد لها عند تعلق كسب العبد بها . ولهم في تصوير معنى كسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه ^(١)

(١) المراد بهذا الفريق الأشعرية وهم الفريق الأكبر من المتكلمين

وقالوا: إن الأسباب والآلات لا بد منها في صدور الأثر،
إلا أن الذي يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق وهذا اتفق
جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام يعتمد التمكن من
الالتزام بالمكلف به من حيث حال المكلف، وصرحوا بأنه لم
يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه
غير أنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادية، لأنه ليس من الواجب
على الخالق أن يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها
ولقبوا ما يحدث في العالم مخالفاً لها بخارق العادة وليس كل
غريب عندهم خارقاً للعادة بل الخارق هو ما لا يدخل في مكنة
قوة حادثة، ولا يقدر على إحداثه إلا القادر على مخالفة النظام
الذي سنه وهو الله.

هذا الفريق من المتكلمين يستند في إثبات صفة العلم لله
تعالى إلى ما في هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام
من الأسرار والحكم وهل يتأتى هذا الاستناد منهم أن لم يقولوا
بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها؟

كان هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيراً من الفنون

كالطب وعلوم المواليد الثلاث : الحيوان والنبات والمعدن -
منهم الأئمة الرازيون ، كفخر الدين الرازي ، وأبي بكر الرازي .
ومحمود الرازي وأمثالهم ومنهم الإمام أبو بكر الباقلاني وكيف
يتيسر لقائل إنه لاعلاقة بين الأسباب والمسببات أن يبرع في
فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها في العادة مما هو
مصدر لها في بادئ النظر ؟

فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب
عن سببه الذي جرت عليه سنة الله بأن يكون معه ، وإن شئت
فقلت : سأل عن السبب الذي أصدر الله وجوده عنده ، وهل
يمكن أن يقول المتكلم : إنه لاعلاقة بين الولد وبين وجود والديه
أو بين جودة العمل وعلم العامل ، أو بين غزارة الثمر وخدمة
الشجر ؟ هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط ، وإلا لما قرأ واحد
منهم كتاباً ، ولا خط في صحيفة سطرأ ، لأنه لاعلاقة بين
المطالعة والفهم ولا بين التحرير والإفهام .

فإن شئت أن تقول : انه مذهب مع ذلك غامض يكدر

الذهن في فهمه ، فلك أن تقول وأن تنعم النظر ، حتى تفهم مبانيه وأصوله ، وأن تناقش بالدليل الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

القول بنفي الزابطة بين الاسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد في كتابه : ان الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل : تحول عن مكانك فيتحول الجبل (١) يليق بأهل دين يعد الصلاة وخذها إذا أخلص المصلي فيها كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى . وليس هذا الدين هو دين الإسلام . دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) الآية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الخ (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وأمثالها (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) الآيات :

(١) يشير إلى ما جاء فى التجهيل لوقا من الباب ١١ : ٢٣ لاني الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن أن مايقوله يكون فهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطالبونه حينما تصاون فآمنوا أن تدلوه فيكون لكم)

فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب في هذا العالم والمسببات . ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على وعت من الخوارق ^(١) لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل ، وإنما وضع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقيام عليه ، مهما عظم القال والقييل ، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية ، إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقائه .

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب ، وأساءوا الظن بالقدر ، وتظاهروا بترك الأسباب في أقوالهم ، وإن كانوا أشد الناس تمسكا بها في ردائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ، ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل . فظن الناظرون في قذائف أفواههم أن هذه

(٢) الوعث - بالواو - المكان الرخو والأرض اللينة يسيخ فيها

الآقدام والخوافر .

الأوهام مما بنى عليه اعتقاد أسلافهم ، فلا يغترن بعد ذلك
مغتر بما يظن أولئك الناظرون ، ولا بما يتوهمه هؤلاء
الواهمون (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) .

هذا ما يتعلق برأى الجامعة فى مذهب المتكلمين أو فلسفتهم
وننتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه .

فلسفة ابن رشد ورأيه فى المادة وفلسف العالم

المادة وخلق العالم

قالت الجامعة « إن المادة ضرب من الإفتراض لا بد منه »
الافتراض يراد به عند الإطلاق الفرض ، وهو فى
اصطلاح الفلاسفة مالا وجود له ، والمادة عندهم موجودة ،
كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده .

ثم قالت : « وبناء عليه فالعامل الذى هو مصدر القوة
والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى
فعله ، لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثاً ، والخالق
ينزه عن أن يكون حديثاً » وقالت بعد هذا بسطرين

« وهو (أئى مذهب ابن رشد) مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت « أن الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة ، وأن المباشر للتصرف في التكون هو العقل الأول وحده ، وأن السماء كون حى مركب من عدة دوائر ، والعقل الأول فى قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة عقل ، أى قوة تعرف بها طريقها » الخ .

أما مسألة نفي الاختيار فقد ذكرت على إبهامها ، وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين ، وليس الأصر فى حقيقته كذلك

يعلم كل ناظر فى مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين : إلهيين ، وماديين ، والأولون فريقان : مشاءون وإشراقيون ، واشتهر أتباع إرسطو باسم المشائين ، وأتباع أفلاطون باسم الإشراقيين .

وأول مميز للإلهيين عن الماديين : أن الأولين يقولون بوجود واجب برىء من المادة والماديات ، وبوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها ، وبأن للواجب علماً بذاته وبجميع

ما يصدر عنه وعن آثاره ، وأن للعقول المجردة عقلاً وعاملاً
بذواتها وبمبدئها ، وبما يصدر عنها ، والماديون لا يقولون بشيء
من ذلك ألبتة ، فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين .
وابن رشد من مقرر مذهب أرسطو فهو من الإلهيين .

وتشبيهه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة أكبر
دليل على مفارقة الماديين ، كما يفارق المجرد المادة . وقد شرطوا
في هذا التشبيه أن المدبر خارج عن المدبر ، مفارق له منزّه
عن مخالطته .

وأما العقل الأول فليس كما تقول الجامعة ، فإن العقل
الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو أول صادر عن الواجب ،
وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلس ،
ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية ، وعقل آخر هو العقل
الثاني ، وعن هذا الثاني صدر الفلك الثامن المسمى عندهم
بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت
المادة العنصرية ، وإليه يرجع ما يحدث في عالمها ، ولا يكون
العقل الأول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند

أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين ، بل هو مفارق لها ، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ، ولها تعلق بأجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتى بيانه .

والذى حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب وقولهم : إنه واحد من جميع الوجود ، وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الأول . ولما تعددت وجوه العقل في ذاته والنسبة بينه وبين مصدره وعقله لذاته وعقله لموجده صح أن يصدر عنه متعدد ، ولهم في الاستدلال على حياة الأفلاك مقدمات لا حاجة إلى ذكرها لأن الكلام في تصوير مذهبهم لا في تقريره أو إبطاله .

فالعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ، ولا يغشاها شيء من ظلماتها ، وليس العقل الأول بمدير الكون ، وإنما هو مصدر الفلك الأطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته ، وهكذا الأمر في كل عقل مع الفلك الذى صدر عنه . وتدير العالم العنصرى ، وهو ما دون فلك القمر ، راجع

إلى العقل العاشر ، وهو العقل الفعال .

قال الفلاسفة الإلهيون : ولا يجوز أن تكون لأفعال الله غايات وأغراض تبعثه على إصدارها ، وإن ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الوجود المطلق عن غنى مطلق . وقد صرح ابن رشد في تهذيبه لإلهيات أرسطو بذلك ، وهذا مبالغة منهم في نسبة الكمال إلى الله ، على أن ما يصدر عنه إنما يصدر عن علم ، فالذي ينفي عنه إنما هو الاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها ، وأما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون إكراه عليه ، فذلك لا ينفيه أحد منهم ، والمليون من متكلمين ولاهوتيين وإن لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول إليه والتزموه ، فقد ذهب جمهورهم والمعول على رأيه عند قومه منهم ، أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلاً وأبداً ، وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه وعلمه لازم لذاته أزلي بأزلية ذاته ، وكل ما يكون في الكون لا بد أن يقع على وفاق علمه الأزلي جل شأنه ، فلا تردد عنده بين الغايات ، بل ما يصدر عنه اليوم كان لا بد أن يصدر عنه ؛

والأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في عامه ،
فهى تصدير عنه على حسب ترتيبها فى العلم .

وسواء كان هذا القول غامضاً أو غير غامض ، وسواء
توجه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه ، إذا روعيت بقية
الأصول أو لم يتوجه . كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفى
الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وإن ثبت الاختيار
بالمعنى الذى يليق بكمال الله تعالى ، فالفلاسفة وجمهور المتكلمين
واللاهوتيين على وفاق فى حقيقة ، المسألة وإن اختلفت
لعبارات ، فإن رشد رحمه الله لم يخرج فى آرائه عن المليين ،
فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريباً منه

طريق الاتصال

يتوهم الناظر في هذا العنوان في الجامعة مع مراعاة الفصل الذي تقدمه فيها أنه عنوان لرأى ابن رشد في طريق اتصال الكون بالخالق ، فإذا استمر في قراءة ما بعد العنوان إلى آخر الفصل علم أن المراد طريق اتصال الإنسان وحده بخالقه : وعثر في آخر البحث على هذه العبارة « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم » . وأما ما بين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم في مذهب الفيلسوف .

وإني ذاكر لك رأيه في اتصال الإنسان بالله أي قربه منه وسعادته به ، وفي طريقة تكيله لنفسه ، حتى يستمد لذلك القرب ، وبذلك تعرف أن ما جاء في الجامعة ليس بالذي تصح نسبته إليه ، خصوصاً بعد قولها : إنه أخذ مذهبها في ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وما قاله أرسطو في ذلك الكتاب معروف مشهور .

أثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الإسلام أن نفس الإنسان التي هو بها إنسان — وهي ما يلقبونها بالنفس الناطقة — جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال في جسم وإنما له علاقة بالجسم يدبره ويصرفه ، وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ، ولهذا النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير .

وقالوا : ان انطباع المحسوسات والمعاني الجزئية في الحواس الظاهرة والباطنة — على ما فصلوه — يعد النفس لقبول الكليات ويهيئها لتلقى المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذي سبق لنا ذكره ، وجعلوا مراتب النفس في استحصائها ، كما لها العامى وبلوغها ذروتها أربعاً .

(الأولى) العقل الهيو لاني ، وهو قوة استعداد النفس نحو المعقولات ، وتسميته عقلاً تسمية مجازية .

(الثانية) العقل بالملكة ، وهي القوة التي تحصل للنفس عند حصول المعقولات الأولى ، مثل الجزء والكل ومثل الحكم بأن الأول أصغر من الثاني ، ومثل النفي والاثبات ، والحكم بأنهما

لا يجتمعان في محمول واحد لموضوع واحد ، وكذلك كل ما خلاص من محسوس وهو لا يحتاج في تخليصه إلى فكر ، والنفس تنهياً بهذه القوة لا اكتساب المعقولات الثانية ، إما بالفكر وإما بالحدس ، وليس الحدس هو الظن كما هو في المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادئ إلى المطالب أو انتقال النفس من المعلومين إلى الوسط الذي يصل بينهما ومن ذلك إلى معلوم ثالث بلا تجشم نظر . ولذلك جعل مقابلاً للفكر الذي هو النظر بعينه .

(الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد ، وهي أن تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة في الذهن .

(الرابعة) قوة تسمى « العقل بالفعل » وهي ما به تتمكن النفس من استحضار المعقول المكتسب المفروق منه متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب .

قالوا : والذي يرقى بالنفس في هذه المراقي هو العقل الفعال ، وهو ذلك العقل العاشر المصروف للمادة العنصرية لأعقل الإنسانية العام ، كما تقول الجامعة ، فإن أرسطو وابن رشد

لا يقولون بعقل يسمى عقل الإنسانية العام ، بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التي عنى أرسطو بإبطالها وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها ، فالعقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهينولائي إلى العقل بالملكة ، ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ومنه إلى العقل بالفعل .

ولما كان العقل الفعال جوهر أعقليا بالفعل كانت المعقولات بأنسرها حاصلة له بالفعل . وأما نفوسنا فهي عقول بالقوة ولكنها إذا استعدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أي بالإقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ، ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاضعة بذلك الاستعداد الخاص لأحكام خاصة ، وإدراك المعاني الجزئية بواسطة الخواص وحركة النفس في المعقولات الأولى والبحث والتجربة والدرس وما ينبحو هذا النحو كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات في الموضوعات التي كان الاستعداد فيها . فإذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت إلى جانب الحس أو إلى صورة أخرى غير التي حصلت لها بذلك الاستعداد انحى الممثل الذي كان أولاً ، كأن المرأة التي

كان يحاذي بها جانب القدس ، قد أعرض بها عنه إلى جانب
الحس ، أو إلى شيء آخر من الأمور القدسية .

قالوا : وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على
النفس ما استعدت له من المعقولات له علة ، وعجلته قوة بعيدة
هي العقل الهيوالاني وقوة كاسبة هي العقل بالملكة ، وقوة
تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت
بملكة متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل .

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء
بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم ، وفيها ما يشبه مانسته
الجامعة لابن رشد ، منها أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية
صار هو إياها ، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه
أن يصير النفس جميع المعقولات التي تحصل لها وتصور
المعقولات كلها معقولا واحداً . يلزم عليه انعدام النفس
ووجود ما عقلة أو استحالة النفس إليه وهو محال وخلاف
الفرض

ونقلوا عن (فرفوريس) أنه قال : ان النفس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال — وهو حق في رأيهم — ولكنه قال : إن معنى اتصالها بالعقل الفعال أن تصير هي نفس العقل الفعال لا أنها تصير العقل المستفاد ، والعقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء — وهو مجرد لا يتجزأ — أو تتصل به النفس اتصالاً واحداً تكون به النفس كاملة واصله إلى كل معقول ، وهو ليس بحاصل في جميع الأحوال وقالوا : إن دعوي اتحاد شيء بشيء آخر — على معنى استحالة الأول إلى الثاني — قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها ، وأما استحالة النفس إلى العقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام ، كما عرفت الجامعة بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الأعلى ، فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها

قول ابن رشد بخلود النفس وسعادتها أو شقاءها بعد الموت ٢٥١

لمطلع ذلك النور الأجل ، فهل مع هذا يصح أن ينسب إلى
الفيلسوف ماعده غير معقول ؟ .

قال الفيلسوف وشيعته : ان النفس الناطقة التي هي
موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به ،
بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم فإذا استحال الجسم عن أن
يكون آلة لها وحافظاً للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها
بل تكون باقية بما هي مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية ،
فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها
بالفناء في شيء سواها ، لا عقل فعال ولا وجود واجب ، وهي
تسعد بكمالها العلمي والأدبي الذي حصته مدة تعلقها بالبدن .
وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من
عالم آخر تتخيل فيه ماهو لذة لها . وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها
فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة ، خلودها خلود لشخصها
المميز من كل شيء سواها ، سواء كان عقلا فعلا أو غيره .

فهل بعد هذا يعد الفيلسوف ماديا ومذهبه مذهباً ماديا ،
قاعدته العلم ؟ لا بل هو إلهي ومذهبه مذهب إلهي قاعدته العلم

قائلٌ بخلود النفس وسعادتها وشققائها وعذابها ونعيمها كما رأيت

ما نقله فلاسفة أوروبا عن ابن رشد

بقي علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوروبا عن الفيلسوف
الجليل ابن رشد في مبدأ العالم ومصدر وجوده . قالوا : لم يكن
يعرف العلم والفلسفة عند الأوربيين إلا في مدارس المسلمين في
إسبانيا ، فكان يقصد تلك المدارس طلاب للعلم من كل ناحية
كان يجلس في درس الفيلسوف عدد عظيم . لم تأت نهاية
القرن الثاني عشر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء
من العلم رأى زعزع طلائنة الكنيسة وأفزع القابضين على
مقاييح القلوب بذلك الوقت الوافين على أبوابها يأذون لما
شاءوا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاءوا
ذلك الرأي الذي أخذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو أن
الكون أجمع يرجع في وجوده إلى واحد هو حياة الكل وهو
روح يقوم به كل جزء منه . وقالوا : إن الذي نشر هذا المذهب
بين الناس هم تلاميذ ابن رشد . ففهم بعض علمائهم أن ابن رشد
كان يقول : إن مبدأ العالم هو أصل عرضت له صور العالم ، أو

روح ظهر في مظاهر الكائنات ، كما يقول الصوفية أو نحو ذلك واستتبع هذا رأيا آخر ، وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطأت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق . وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام ، إلى مشرقها العام وتفقد امتيازها فيه ، وذلك كله — وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوربيين — غير ما يقول ابن رشد ، وأما ما يقول ابن رشد فهو ما ترى :

قال ابن رشد — وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا في ذلك أرسطو — : ان الممكن لا وجود له في ذاته وإنما يستفيد الوجود من غيره ، وقد قالوا ان جميع مافي الكون ماعدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن ، فكل مافي العالم فهو مستفيد الوجود من غيره ، فذلك الغير ان كان ممكنا فكيف يعطى الوجود ، وهو لا وجود له إلا من غيره ؟ فإذا استمد منه مستمد فانما يستمد من فضل ذلك الوجود الذي جاءه من موجدده إلى أن ينتهي إلى الوجود الأول فكل وجود سيطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود

إلا من وجوده ، أو كل وجود فهو شعاع لضياء وجوده ، فإذا
حرر المعنى من هذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع
إلى مقاله السيد الشريف من أئمة أهل السنة وغيره وهو :

« إن الممكن ليس بشيء في ذاته ثم يكون شيئاً بالإيجاد
والإيجاد لو حققته أمر اعتباري انتزاعي ، له منشأ في الواقع ، وذلك
المنشأ هو ذات الموجد وماهية الموجد الممكن التي صارت
شيئاً بتلك العلاقات الاعتبارية بينها وبين موجدها ، وهي
ما يسمونه تعلق القدرة بالمقدور ، وماهية الممكن ليست بوجود
ولا الوجود أمر موجود قائم بها . فإذاً ليس من وجود في
نفس الأمر إلا وجود الواجب ، فكان الوجود الحقيقي واحداً
وسائر ما يسمى وجوداً أو موجوداً فإنما ينال ذلك بالاضافة
إلى الوجود الحقيقي . وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن
تكون حقيقية » .

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب
عن المادة والمدة ، إلا أن من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من
ذيوه رأى القائلين بأن الموجد الأول روح سار في العالم وإليه

يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه ، وما هو برأى ابن رشد ولا يعرفه .

على أن الصوفية — وهم المصريحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولاً والفناء آخرًا ، الناطقون في ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم — لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالاً حقيقياً ، بل قالوا : إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان ، ولكنها تسعد في خلودها ، باستغراقها في شهودها ، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها ، فهي غنية بعرفانه عن معرفتها بنفسها . وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذته ، وهو معنى تقصر دون إيضاحه العبارات ، وإن كفى في تعريفه لأهله أخفى الإشارات ولعل الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب ، وفيما أجب به من طلب ، فقد وفي حقاً لها لو أغفله مع علمها بالقدرة عليه ، لحق لها أن توجه العتب إليه .

هذا ما أردنا إيجازاً نقول فيه متعلقاً بفلسفة المتكلمين ، ورأي الفيلسوف وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة . من الكلام على الاضطهاد في النصرانية والاسلام ، إن شاء الله تعالى اهـ

تأثير هذا المقال وتقريره

يقول جامع هذا الكتاب وناشره : كتب هذا الإمام الكبير مقاله في أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ، ولقد كان لنشره من التأثير في عالم العلم والدين ، ما لم نره لكلام أحد من الكتابين ، طارت به اغتباطاً قلوب المسلمين ولم يخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صدها المنعكس عن المنار ، بعض الجرائد في مصر وغيرها من الأقطار .

قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعد ما ذكرت انتقاد

الجامعة في عدد ١٣ : ٢١

« فهب المنار الأغر ينشر بالتوالي رداً مفصلاً طويلاً الأذيال
 لإمام تغنى كنيته عن التصريح باسمه . ضمنه تفنيده أقوال الجامعة
 بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل
 من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى . ولا يزال المؤيد الأغر
 حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها ، والرد
 كما قلنا قوى الحجج ، متين العبارة ، لم يسبق فيه واضعه عالم
 قديم أو حديث » اهـ المراد منه

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين ، بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقد طالعت رده في مجلة المنار ، ورأينا في قسم الرد الثاني — أى الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم — حججا حريية بالاعتبار ، ورأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحي على رأى إمام مسلم معصرى في المسيحية ، فاخترنا نقله » .

ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا . وقد رأينا في آخر عدد وصل إلينا منها مقالة وجيزة لأديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة . ثم قال « رد عليها الرجل الإسلامى العصرى . بل رجل الاسلام فى هذا الزمان .. رداً أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة ، فيستطاع أن يقال : إن انتصار العلم فى أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الإسلامية تساهلا ، ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم فى أوربا إلى أسبابه الحقيقية فهل أصاب صاحب الجامعة فى جعل تساهل المسيحية شبيهاً لانتصار العلم م ١٧ — الاسلام والنصرانية

في أوروبا؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل، اضطهدت العلم اضطهاداً، فالجواب « كلا لم يصب صاحب الجامعة » ثم ذكر الكاتب : أن سبب القوة والعلم في أوروبا يرجع إلى طبيعة البلاد ومعارض عليها من ضيقها بسكانها الخ .

وكتب إلينا عالم مسيحي من سورية - تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق (هو الأستاذ جبر صومط) الشهير ما نصه « ما أسمى ما كتب الامام في العديدين الآخرين من المنار بحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معاً ، لا تحصروا الفخر فيكم أيها المسلمون ، بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانتى الكاثوليكي في انكثرا بالفخر بأحد علماء بريطانيا »

وكتب إلينا غيره بمعنى ذلك ، وإن كان بعضهم انتقد بعض ما كتب في النصرانية وقال : ان تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحى نفسه . ونحن المسلمون نقول بذلك ، نقول : إن الصورة التى انقلبت إليها ديانة المسيح عليه السلام هى التى نشأ عنها ما تقدم ، ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شئ من ذلك

وأما صاحب الجامعة فقد حيب حسن ظننا فيه ، ولم يرض باعتذارنا عنه ، بل أصر على طعنه بالإسلام ، وأضاف إليه الطعن بنا وبالإمام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة ، ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة ، فنعلم هل هي مصرة على الخصام ؟ أم ثابت إلى الوفاق والوثام ، والذي هو أولى بها في دار الإسلام ؟

الجواب عن هذا الاستفهام

أن فرج أفندي أنطون صاحب الجامعة التقطع عن إصدار مجلته وعن كل عمل زمنياً طويلاً ألف فيه كتاباً في فلسفة ابن رشد للرد على الإمام ، ظن أنه يكون مصدر ثروة له وشهرة يعد بها من أقران الإمام ، فكان سبباً بزيادة سقوط قيمته العامة والأدبية ، ورددنا عليه في المنار رداً أظهر تأفيه جهله فيما كتب وخطأه فيما نقل ، وكانت عاقبة ذلك أن بطلت مجلة الجامعة ، فلم يعد يقرأها أحد واشتغل آخر عمره بتأليف القصص التمثيلية ، فكانت أولى به من الاشتغال بالفلسفة الإلهية والمادية ، وكل ميسر لما خلق له .

ونختم هذا التقرير بأيات ، أبيات من نظم أحمد أفندي

الكاشف الشاعر المشهور بالإجادة يقرظ بها المقال مخاطباً
لكاتبه وهي :

سلاماً حجة الإسلام فينا ورضواناً رجاء المسامينا
عنيت بما كتبت فكان وحياً يؤيد وحي ملهمك المينا
فلم تترك لهم مكاناً يرى فيه المزاعم والظنونا
فما يدعو بأخر مستعينا فما يدعو بأخر مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدى بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثاراً وذكرأ وقدراً في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفاً وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكته به معاقل عاليات نبت عنها سيوف الفاتحينا
وما ضر الضلال الخلق حتى نفعتهم ، وأوضحت اليقيننا
فرقنا بالمكابر قد كفاه مجادلة وأوشك أن يدينا
ودعه في تأمله ، عساه يحببك بإعتراف المهتدينا
فلو سلكت ملوك الشرق يوماً سلوكك بيننا دنيا وديننا
تمادى الحق متبعاً مصوناً وقام الملك ممتداً أميناً
وعاش التاج مؤتلقاً رهيباً ودام العرش معتزلاً متيناً
ومثلك أو تحكم مستنداً فقد ملأ الضمائر والعيونا